

رحلة حظيرة الأنس إلى حضرة القدس لابن نباتة المصري ت ٧٦٨ هـ.

(دراسة موضوعية وفنية)

"Journey" Haderat Al-Uons Ela Hadarat Al\_Quds Ibn Nobata  
Al-Masry 768H.

رائد عبد الرحيم

قسم اللغة العربية وآدابها. كلية التربية للمعلمات. جامعة البنات. القوية. منطقة الرياض. السعودية.

بريد إلكتروني: rarrabeh@yahoo.com

تاريخ التسليم: (٢٠٠٤/٨/١١)، تاريخ القبول: (٢٠٠٥/٩/٢٠)

### ملخص

كثرت أعداد الرحلات التي قام بها ودونها أدباء عاشوا في العصر المملوكي. الأمر الذي أفرز نوعاً أدبياً له سماته الفنية الخاصة به. وهو أدب الرحلات. وقد عني الباحثون بدراسة بعض تلك الرحلات<sup>(١)</sup>. وبعضها الآخر لم تصل إليها أيدي الباحثين بعد<sup>(٢)</sup>. ولم تعن بها دراسة علمية مستقلة. ومنها "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس"<sup>(٣)</sup> لابن نباتة المصري<sup>(٤)</sup>. من هنا جاء هذا البحث ليلقي الضوء على جوانبها الموضوعية والفنية. تناول الجانب الموضوعي دواعي الرحلة. واسمها. وتدوينها. ومنهج الكاتب في تدوينها. ومضامينها. أما الجانب الفني. فاشتمل على بناء الرحلة. واللغة والأسلوب. والاتباعية. والفنون البديعية. والصورة الفنية.

- (١) من هذه الدراسات د. حسني محمود. أدب الرحلة عند العرب. جورج غريب. أدب الرحلة تاريخه وأعلامه. أحمد أبو سعد. أدب الرحلة وتطوره في الأدب العربي. علي محسن مال الله. أدب الرحلة عند العرب في المشرق. د. حسين نصار. أدبيات أدب الرحلة.
- (٢) منها على سبيل المثال "رحلة ابن حجة الحموي إلى البلاد الرومية". و "رحلته من مصر إلى دمشق". انظر ابن حجة ثمرات الأوراق ص ٣٧٠-٣٩٥.
- (٣) احتفظ ابن حجة الحموي بهذه الرحلة في كتابه "ثمرات الأوراق". ص ٣٥٨-٣٧٠. وهي رحلة صغيرة عدد صفحاتها في الكتاب اثنتا عشرة صفحة مطبوعة بخط صغير.
- (٤) انظر ترجمته في: الصفدي. الوافي بالوفيات. ٣١٠/١. ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ٧٦/١١. الدليل الشافي. ٧٠٠/٢. ابن حجر. الدرر الكامنة. ٣٣٩/٤. السخاوي. الذيل التام. ص ٢٢٣. وجيز الكلام. ١٥٨/١. المقرئزي. السلوك. ٣٠٩/٤. د. عمر موسى باشا. أمير شعراء المشرق.

## Abstract

The journey's numbers which the authors of Al-Mamluki age have done and made, have been multiplied, the reason that produced a kind of literature that has is special Artistic characters, and which is the "journeys literature". The researchers has card to study some of these journies, and some other haven't been reached by the researchers yet, and haven't been studied independently, and one of those is "Haderat Al-Uons Ela Hadarat Al\_Quds by Ibn Nobata Al-Masry", and from here comes the research to highlights on its Artistic and objective aspects taking the objective aspect, the jorum's, its name, writing, the authors curriculum in writing, and its themes. But the Artistic aspect included, the journey's construction, the language and style an attachments, the innovational Arts, and the compassion images.

### القسم الأول: الدراسة الموضوعية

#### دواعي الرحلة

تعددت دوافع الرحالة العرب في رحلاتهم<sup>(٥)</sup>. ومنها تسرية الحزن. فقد "كان الشاعر العربي منذ الجاهلية إذا اشتد به الكرب. وضافت منه النفس. يمتطي ناقته. ويضرب في الصحراء بغية التحف من الحزن والخلوص إلى الفرج. ويقيت تلك عادته في الاسلام". وكذلك فعل ابن جببر. فعقب وفاة زوجته. اشتد حزنه عليها. فرحل رحلته الثالثة إلى المشرق. وتوفي في الإسكندرية<sup>(٦)</sup>.

أما رحلة ابن نباتة. فقد كان ذلك الدافع وراء قيامه بها. فقد ابتلى الله هذا الشاعر. كما يقول الصّفي. بموت أبنائه فلم "يعش له ولد. فدفن. .. قريباً من ستة عشر ولداً. كلهم إذا ترعرع. وبلغ خمساً أو ستاً أو سبعاً. يتوفاه الله تعالى. فيجد لذلك الآلام المبرحة. ويرثيهم بالأشعار الرائقة الرقيقة"<sup>(٧)</sup>.

(٥) انظر د. حسين نصار. أدبيات أدب الرحلة. ص ٤٩-٤٦. انظر كتاب علي محسن مال الله. أدب الرحلة عند العرب في المشرق.

(٦) د. حسين نصار. أدبيات أدب الرحلة. ص ٤٦.

(٧) الصفي. الوافي بالوفيات. ٣١٢/١.

كان ابن نباتة قبل رحلته. قد توفي ابنه عبد الرحيم. فأصابه موته بكمد عظيم. وحين رآه الأشرف صاحبى الوزير الأميني<sup>(٨)</sup> على حالته تلك. عرض عليه أن يرافقه في زيارته إلى القدس الشريف. لعله يخفف عنه ما كان يعانيه من آلام مبرحة وأسى كبير. فاستجاب ابن نباتة لدعوة الوزير. وهذا ما عبر عنه في "حظيرة الأنس" إذ قال مشيراً إلى الوزير الأميني: "فلما عزم بدمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف. أطلع رأيه الشريف على ما في خاطري. وأمرني بالمسير في ظل ركابه. فسُرَّ على الحقيقة سائري، ... ونظر لحالي. ولا يُنكر النظر في الأحوال لسيد الوزراء والزهاد. وكان له في اصطحابي مقصد. تقبل الله عمله الصالح. ومنجره الرابع. وذلك أني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي. مقيماً بين المقابر إقامة تفتت حبة قلبي على قطعة كيدي. ساقياً روض الحزن بغمام الجفون. باكياً على دينار وجه عاجلته الأيام بصرف المنون. أطلب قلبي في التراب. وأنشده. وأطرح صوت الصدى. فينشدني وأنشده. .."<sup>(٩)</sup>

وأشار ابن نباتة إلى سبب آخر دعا الوزير الأميني إلى اصطحابه. وهو رغبته في تربيته منه. ويتجلى ذلك في قوله: "فاقتضى تدقيق النظر صاحبى في إسداد العوارف. وإبداء عواطف الفضل. وفضل العواطف أن ينزع عني بصحبة ركابه الكريم لباس الباس. ... ويقرب مثلي قُرباً لا يفظن لمثله إلا مَنْ وَمَنْ"<sup>(١٠)</sup>.

وقد حققت الرحلة نتائجها. إذ وُطدت علاقة ابن نباتة بالوزير الأميني وقرره الأخير "أن يكون في كل سنة ناظر القيامة"<sup>(١١)</sup> بالقدس الشريف أيام زيارة النصارى لها. فيتوجه يباشر ذلك ويعود"<sup>(١٢)</sup>. وساهمت الرحلة في التخفيف من حزن ابن نباتة ولوعته. وقد عبر عن هذا وذاك في قوله: "فيالها سفرةً قابلها وجه الإقبال بالسفور. وتلا فضلها "الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور". ومدّ فيها للإنعام ظلاً ظليلاً. وملا بيتي وعيني دقيماً جليلاً"<sup>(١٣)</sup>.

### اسم الرحلة

أطلق ابن نباتة على رحلته اسم "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس". وهذه التسمية تتكون من عنصرين:

(٨) هو أمين الدين عبد الله بن تاج الرئاسة القبطي. أسلم على يد بيبرس الجاشنكير. تولى الوزارة ثلاث مرات في القاهرة. ثم طلب إعفاءه. لكنه ما لبث أن تولى نظر الدواوين بدمشق سنة ٧٣٣هـ. مات خنقاً بعد نكبة تنكز سنة ٧٤١هـ. انظر ابن حجر. الدرر الكامنة. ٢٥١/٢-٢٥٢. ابن الوردي. تاريخ ابن الوردي. ٣٢٩/٢.

(٩) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٠.

(١٠) ثمرات الأوراق. ص ٣٦١.

(١١) يعني كنيسة القيامة.

(١٢) الوافي. ٣١٢/١.

(١٣) ثمرات الأوراق. ص ٣٦١.

**الأول:** "حظيرة الأنس": تعني لفظة حظيرة. كما ورد في لسان العرب. الحَظْر والحَصْر. والإحاطة بالشيء. يقول ابن منظور: "والحظيرة: جَرِين التمر ... لأنه يحظره ويحصره. والحظيرة: ما أحاط بالشيء. و"الحظيرة تُعمل للإبل من شجر لتقيها البرد والريح"<sup>(١٤)</sup>.

لقد وظف ابن نباتة هذه اللفظة توظيفاً دقيقاً. ومتلائماً مع المقام الذي اختارها له. إذ استخدمها لجعل الأنس كُله محصوراً بهذه الرحلة. ومحظوراً على غيرها. الأمر الذي يدل على أثرها الإيجابي في نفسه. وكيف لا تكون كذلك وهي التي أطفأت جراحه. وقربته من الوزير. وجعلته يحظى بأنسه ونعمه. وحققت له بعض ما كان يصبو إليه من المجد.

وفي توظيف تلك الكلمة أيضاً. مجاملة للوزير الأميني. واعتراف بجميله. وإشعار له بأن جهوده في التخفيف عن ابن نباتة قد أثمرت. وأنت أكلها.

ويؤكد أنس الكاتب وسعادته العظيمة برفقة الوزير. تعبيره عن ذلك في غير موضع من رحلته<sup>(١٥)</sup>.

**الثاني:** "إلى حضرة القدس". زار ابن نباتة والوزير أمين الملك غير موضع ومدينة في فلسطين. منها يافا. وبيسان. والرملة. والخليل. ولكن وجهتهما الأولى كانت القدس. ولهذا جعلها عنوان رحلته. هذا فضلاً عن مكانة تلك المدينة الدينية. وقداستها عند المسلمين وغيرهم.

ومن الجدير ذكره أن الصفيدي أطلق على تلك الرحلة اسماً آخر. إذ قال في ترجمة ابن نباتة: "وسمعتُ من لفظه "النَّحْلَة الأنسية في الرحلة القدسية"<sup>(١٦)</sup>. وهنا يتساءل المرء: هل يتحدث الصفيدي عن رحلة أخرى قام بها ابن نباتة؟ أم هو اسم أطلقه ابن نباتة على رحلته ذاتها؟

يرى د. عمر موسى باشا أن ذلك الاسم هو عنوان كتاب آخر. جمع فيه ابن نباتة رحلته "حظيرة الأنس". وفصّل فيه الحديث عن مجرياتها<sup>(١٧)</sup>. ويؤكد رأيه ما ذكره ابن نباتة في "حظيرة الأنس" إذ صرح فيها أنه سيفصّل الحديث عن رحلته في سفر آخر. فقال: "وتمت هذه السفرة على أحسن ما يكون. واشتملت من وجوه المحاسن على عيون. ... والنَّقَطُ من الفوائد الوزيرية ما كنت أرتقب جواهره وأزاهره. وأردت أن أذكرها في هذه الخطبة. لأنها جواهر. وأضمتها بعض العلم في هذه الأوراق فإنها أزاهر. فكثرتُ على هذا اللفظ المسجوع. واقتضى الحال أن أجمعها في سفر يُقال فيه: تلك رحلة. وهذا تاريخ ومجموع"<sup>(١٨)</sup>.

من هنا يمكن القول: إن "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس" هي التي وصلتنا. أما "النَّحْلَة الأنسية". فلا تزال مفقودة.

(١٤) ابن منظور. لسان العرب. مادة "حظر".

(١٥) انظر ص ٤ من هذا البحث. وسيأتي الحديث عن ذلك ص ١٣-١٤.

(١٦) الوافي. ٣٢٠/١.

(١٧) د. عمر موسى باشا. أمير شعراء المشرق. ص ٢٣١.

(١٨) ثمرات الأوراق. ص ٣٧٠.

## تدوين الرحلة

تحدث ابن نباتة في غير موضع من رحلاته عن تدوينها. فبيّن أن الوزير الأميني طلب منه ذلك. فقال " وأمرني أن أصف له المنازل والطرق وصفاً"<sup>(١٩)</sup>. وقال "واقترضى الحال أن أجمعها في سفر يقال فيه: تلك رحلة. وهذا تاريخ ومجموع"<sup>(٢٠)</sup>.

وفهم من كلام ابن نباتة أنه كتب رحلته على شكل يوميات. كما يبدو في قوله فيها: "وتمت هذه السفارة على أحسن ما يكون. واشتملت من وجوده المحاسن على عيون. قضيتُ المهمّات بها بالنهار. وقضيتُ في الليل المذاكرة"<sup>(٢١)</sup>.

إن تدوين ابن نباتة رحلته بنفسه يرد على الدكتور حسين نصار الذي نفى أن يكون هناك أديب كبير قد دوّن رحلته بنفسه إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين. وهذا ما يتجلى في قوله: " يلفتُ منا النظر إذا فتّشنا عن واحد من كبار الأدباء في القرون الإسلامية الأولى منحنا رحلة مدوّنة لم نجد. وإنما يتّسلّل إلى هذا الفن الأدباء بعد انقضاء قرون طوال. ثم لا يلجأ أحد ممن نعدّهم من كبار أدبائنا إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين والأخيرة خاصة"<sup>(٢٢)</sup>.

## منهج ابن نباتة في تدوين رحلته

دوّن ابن نباتة رحلته بأسلوب علمي دقيق. وهذا الأسلوب يظهر بجلاء فيها. وتتجلى ملامحه فيما يأتي:

**أولاً:** راعى الكاتب فيها التسلسل في ذكر الأماكن التي زارها أو مروا بها. وذلك منذ لحظة الانطلاق حتى الوصول. ومن ثم العودة. هذا على الرغم من أن بعض الأماكن لم تكن وجهتهم. وإنما عبّروها لتوصلهم إلى مقصدهم. ولعلّ ذكّرها قصد منه ابن نباتة الكشف عن خط سيرهم. وعن الطرق التي سلكوها. وليكون بناء رحلته بناءً فنياً ناجحاً متلاحم الأجزاء. ويمكن تأكيد ذلك بعرض تلك الأماكن كما يلي:

دمشق ← الكسوة<sup>(٢٣)</sup> ← الصنمين<sup>(٢٤)</sup> ← منزلة رأس الماء ← الحصين<sup>(٢٥)</sup> ← عجلون  
← الغور ← مشهد أبي عبيدة ← الخليل ← الرملة ← مشهد زكريا ويحيى عليهما السلام ←  
قبر بنيامين أخي يوسف عليه السلام ← بيسان ← مشهد معاذ بن جبل ← الغور ← الصنمين  
← الكسوة ← دمشق.

(١٩) ثمرات الأوراق. ص ٣٧٠.

(٢٠) المصدر نفسه. ص ٣٧٠.

(٢١) المصدر نفسه. ص ٣٧٠.

(٢٢) أدبيات أدب الرحلة. ص ١٢٦.

(٢٣) قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. معجم البلدان. مادة "الكسوة".

(٢٤) قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران. معجم البلدان. مادة "الصنمين".

(٢٥) ذكر ياقوت أنها "بلدية على نهر الخابور". معجم البلدان. مادة "الحصين".

وتتجلى دقة الكاتب في تحديده للمزارات التي بدأوا بزيارتها. يقول: " واستفتحنا المزارات التي نوينا قصدنا. .... بمشهد صاحب رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وهو أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه"<sup>(٢٦)</sup>. كما حدّد الأماكن التي بدأوا بزيارتها داخل المدينة الواحدة. ويتضح ذلك في قوله حين وصلوا الخليل: " ثم نزلنا من محلّ الخليل على محلّ القرى. .. واستقبلنا بمقام إبراهيم أماناً"<sup>(٢٧)</sup>.

وذكر ابن نباتة آخر مكان زاروه في رحلتهم. فقال: " وختمنا الزيارة بمشهد معاذ ابن جبل رضي الله عنه"<sup>(٢٨)</sup>.

**ثانياً:** "اعتمد الرحالة على تحديد تواريخ الأحداث في دقة تامة. وبخاصة من جعلوا رحلاتهم يوميات. فاكثف بعضهم بالتصريح باليوم الأول أو الثاني أو الثالث،..... وذلك أمر هين في الرحلات القصيرة"<sup>(٢٩)</sup>.

اهتم ابن نباتة بتحديد التواريخ والأوقات اهتماماً كبيراً. وذلك على مدار الرحلة كلها. فهو يذكر زمنها ووقتها. فيبين أنها كانت سنة ٧٣٥ هـ<sup>(٣٠)</sup>. وفي فصل الربيع تحديداً. يقول واصفاً جمال الأرض ورونقها وقتذاك: "فسرنا وأيدي السعد قد دلّت الطرق. بل طوتها،.... والأرض قد شرعت في لباس حلّتها وحلّلها. ومراعي الربيع قد وُعدت من الشمس بتسمين حملها"<sup>(٣١)</sup>.

وحدّد ابن نباتة وقت وصولهم إلى بعض الأماكن والمدن. وتحدّث عن مدة إقامتهم فيها. فالقدس وصلوها "طرّة الصبح تحت أذيال الظلام"<sup>(٣٢)</sup>. وأقاموا فيها سبعة أيام<sup>(٣٣)</sup>. وأقاموا في الرملة " ثلاثة أيام"<sup>(٣٤)</sup>. أما مدة إقامتهم قرب مشهد زكريا ويحيى عليهما السلام. فيذكرها في قوله: " وبتنا ليلةً طيّبةً نُحييها. ونُميت النوم. ونعصي بالسهر أمره. فما له سلطان على أعين القوم"<sup>(٣٥)</sup>.

ويحدّد ابن نباتة الزمن الذي قضوه. وهم يقطعون الكسوة عائدين إلى دمشق فيقول: "وقطعنا بالكسوة ليلاً طائلاً". "وفي تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق المحروسة سابقين لغرة الصبح بغرر الخيل"<sup>(٣٦)</sup>.

(٢٦) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٣.

(٢٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٧.

(٢٨) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.

(٢٩) أدبيات أدب الرحلة. ص ٩٥.

(٣٠) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٠.

(٣١) المصدر نفسه. ص ٣٦١.

(٣٢) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٤.

(٣٣) المصدر نفسه. ص ٣٦٧.

(٣٤) المصدر نفسه. ص ٣٦٨.

(٣٥) المصدر نفسه. ص ٣٦٨.

(٣٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.

وتجلى اهتمامه بتحديد الوقت إذ قال حين توجهوا إلى الخليل: " وبرزنا في اليوم السابع من الإقامة وقد قدمنا نقصد الخليل" (٣٧).

**ثالثاً:** اتسم منهج ابن نُبّاتة في تدوين رحلته بالإيجاز في التعبير والوصف. وهذا أسلوب جلي فيها. كونها رحلة قصيرة وموجزة. لامجال فيها للإطالة والإطناب. فقد اكتفى بالحديث عن الأشياء البارزة التي شاهدها. أو قاموا بها.

**رابعاً:** استقى كثير من الرحالة العرب معلوماتهم من الناس والشعوب التي رأوها. واختلطوا بها. وكانت هذه المعلومات مصدراً مهماً من مصادر كتابة رحلاتهم. هذا إضافة إلى مشاهداتهم الشخصية. وخبراتهم العملية.

أما ابن نُبّاتة. فقد دون رحلته وفقاً لمشاهداته الشخصية حسب. ولم يعتمد في تدوينها على مصدر آخر. ولذا كثر فيها استخدام الأفعال الماضية الدالة على المشاركة في الأحداث ومعايشتها. مثل "أتينا". و "صعدنا". و "قدمنا". و "برزنا". و "نزلنا". و "سرننا" وغيرها الكثير.

ويؤكد أتكاء الكاتب على خبرته الشخصية في تدوين رحلته. أنه لم يذكر البتة اعتماده على غيرها.

### مضامين الرحلة

اشتملت رحلة "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس" على مضامين عدة. فقد تحدث مؤلفها عن مُتعلّقاتها. وعن جوانب ثقافية وعلمية واقتصادية واجتماعية وجغرافية. أطلعوا عليها إبان زيارتهم مدن فلسطين وغيرها من المدن.

أما مُتعلّقات الرحلة. فتعني الأمور التي تتعلق بالرحلة ذاتها. مثل الحديث عن وقت الانطلاق. وصحبة السفر ووسائله. ومكان الإقامة. والأعمال التي قاموا بها خلال الرحلة. وأخيراً أثر تلك الرحلة في نفوسهم (٣٨).

أشار ابن نُبّاتة إلى وسيلة من وسائل السفر المستخدمة في رحلتهم. وهي الخيل. فقال: "... وَمَرَرْنَا وَالْخَيْلُ تَجْمِرُ جَمْرًا" (٣٩) "وسلكننا جانب الغور. وخضنا في حديثه وخاضت الخيل" (٤٠).

وتحدّث عن صحبة السفر. فبيّن أنهم كانوا في مجموعة. وأتضح ذلك من استخدامه لفظة "الرّفاق". والأفعال المستندة إلى ضمير المتكلم الدال على الجمع "نا". ولكنه لم يذكر من تلك

(٣٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٧.

(٣٨) انظر أدبيات أدب الرحلة. ص ١١٤.

(٣٩) ثمرات الأوراق. ص ٣٦١.

(٤٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٣.

المجموعة سوى الوزير الأميني. وشخصاً آخر يدعى "الخُلد" إذ قال: "وكان معنا شخص يلقب بالخُلد سكن بيتاً حسناً. غَمَضَ عينه عن الرفاق تغميضاً بيئاً"<sup>(٤١)</sup>.

ومن الطبيعي أن تكون أعداد المشاركين في هذه الرحلة كبيرة. ذلك أن من قام بها. وأشرف عليها وزير من وزراء الدولة المملوكية تفتضي مكانته أن يصحبه خدم وحشم وجند. فضلاً عن الأصدقاء والمقربين.

وكشف الكاتب عن مكان إقامتهم في بعض المدن التي زاروها ومنها القدس فقال: "وأقمنا في بيوت أذن الله أن يرفع شأنها"<sup>(٤٢)</sup>. وفي عجلون أقاموا كما يقول "بالخيام في مرّجتها الخضراء تحت قلعتها الغراء"<sup>(٤٣)</sup>.

أما عن أعمالهم التي قاموا بها في الأماكن التي زاروها. فقد أكثر ابن نباتة من الحديث عنها. وبخاصة أعمال البر والإحسان التي قام بها الوزير أمين الملك. وما ذلك إلا رغبة منه في الإشادة بذلك الوزير. وتخليد أفعاله.

فقد أجزل الوزير الأميني العطاء لأهل القدس والخليل إذ توافدوا إليه<sup>(٤٤)</sup>. وعقد في هاتين المدينتين مجالس ختم القرآن وتفسيره<sup>(٤٥)</sup>. ورثب في القدس "للشيخ والفقراء ما يحتاجون إليه من كل نوع فريد"<sup>(٤٦)</sup>. وأمر الوزير بعمارة مبان كثيرة وترميم أخرى. وبخاصة الدينية منها والثقافية. ففي القدس أمر ببناء "الرُواق على سطح الزاوية الصاحبية"<sup>(٤٧)</sup> بباب الحرم الشريف<sup>(٤٨)</sup>. وفي مدينة الرملة. عمّر ما حَرَبَ من مسجد الرُّكني<sup>(٤٩)</sup>. وحين وصلوا مشهد معاذ بن جبل "أمر بما يحتاج إليه من تجديد وعمارة"<sup>(٥٠)</sup>.

ويلخص ابن نباتة أعمال الوزير خلال تلك الرحلة بقوله: "وألحق بكل مزار وردنا عليه في هذه السيارة. فإننا لا نفرقه إلا عن إقامة صلاة وصلات. وتجديد آثار يزِين به وجه القبول كاتب الحسنات"<sup>(٥١)</sup>.

(٤١) المصدر نفسه. ص ٣٦٤.

(٤٢) المصدر نفسه. ص ٣٦٤.

(٤٣) المصدر نفسه. ص ٣٦٢.

(٤٤) انظر ثمرات الأوراق. ص ٣٦٦. ٣٦٧.

(٤٥) انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٦. ٣٦٧.

(٤٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٦.

(٤٧) نسبة إلى الوزير الصاحبى أمين الملك. بناها في القدس الشريف للمتصوفة.

(٤٨) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٦.

(٤٩) المصدر نفسه. ص ٣٦٨.

(٥٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.

(٥١) المصدر نفسه. ص ٣٦٩. وانظر ص ٣٦٢-٣٦٣.

وبرزت في هذه الرحلة نواح جغرافية وعمرانية وعلمية وثقافية واجتماعية. وهي أمور تجلّت واضحة في كتب الرحالة العرب. ولكنها ظهرت بصورة موجزة في "حظيرة الأنس" بصورة تتلاءم وعدد أوراقها المحدود.

كان الجانب الجغرافي أكثر جانب اتّضحت معالمه في رحلة ابن نباتة. إذ عدّد فيها أسماء أماكن كثيرة مرّوا بها وزاروها. وبعضها لا فائدة في ذكره إلا للأسباب التي ذُكرت سابقاً. وهي رغبته في تقديم صورة لخط سيرهم. وبناء رحلته بناءً فنياً ناجحاً<sup>(٥٢)</sup>. ومن تلك الأماكن ما ورد في حديثه عن خط سير الرحلة من دمشق إلى القدس يقول: "فأتينا الكِسوة فلبسنا للمسرة ثياباً سابعةً الدّيول. وطُفنا منها بكعبة الفضل طوافاً. .... وجزنا بالصنّمين فهَمّت أن تقخر بمواطئ خيلنا على اللات والعُرى. وصعدنا منزلة رأس الماء....."<sup>(٥٣)</sup>

وتحدث المؤلف عن المشاهد وقبور الأنبياء والصحابة والصالحين. ذكراً أسماء أصحابها. وأماكن تواجدها. ومن ذلك ما جاء في قوله حين نزلوا الرملة متجهين إلى بَيْسان: "ورحلنا عن الرملة بنيتة الزيارة لمشهد زكريا وبحيى عليهما السلام فمررنا في طريقنا بجملة غير معترضة. ... تحتوي على قبر بنيامين أخي يوسف عليه السلام. فألحقناه بزيارة أخيه". "وسرنا والصدور منشرجة والطريق إلى خير الدارين متّضحة. وجننا المشهد وقد ظهرت عليه بضريحين كريمين بهجة الدين والدين"<sup>(٥٤)</sup>. وفي مدينة الخليل. وفي طريقهم إليها. زاروا قبر يونس عليه السلام. ومقام إبراهيم عليه السلام. يقول: "وزرنا قبر يونس عليه السلام في طريقنا". "واستقبلنا بمقام إبراهيم أماناً. واستلمنا من ضريح شائد الركن. ومن ضرائح أهله أركاناً"<sup>(٥٥)</sup>. وختموا رحلتهم بزيارة مشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه<sup>(٥٦)</sup>.

ووصف ابن نباتة الطبيعة وجمالها في بعض الأماكن والمدن. وأوحى بجمال بعضها إحياء كما يبدو في قوله إذ توجهوا إلى بَيْسان: "وقويننا على قصد جنى الجنان. واستقبلنا محاسن بَيْسان"<sup>(٥٧)</sup>. وصور الكاتب دمشق إبان عودتهم إليها. وما كانت تتحلى به من زهور وأنها. ومناظر خلّابة. فقال: ". .. نازلين من دمشق جنّةً قد تبسّمت لقدمنا عن ثغور الأزهار. وأجرت أمام ركابنا الأنهار. ولبست من وشي البديع خللاً لها من أوائل ما انعقد من الثمار أزرار"<sup>(٥٨)</sup>.

ووصف ابن نباتة جوانب حضارية وعمرانية في المدن التي يَمّموا شطرها. وهذا ما فعله إبان زيارتهم القدس الشريف. إذ تحدث عن الحرم القدسي مُنوّها بجمال صنّعته. وحسن إتقان

(٥٢) انظر ذلك تحت عنوان "منهج ابن نباتة في تدوين رحلته".

(٥٣) ثمرات الأوراق. ص ٣٦١.

(٥٤) المصدر نفسه. ص ٣٦٨.

(٥٥) المصدر نفسه. ص ٣٦٧.

(٥٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.

(٥٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٨.

(٥٨) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.

سُفِّفه. وما فيه من رخام ومياه جارِية. ويتجلى ذلك في حديثه عن الأماكن التي توجهوا إليها في القدس: " فمنها ما هو مخصوص بالحرم الشريف. نَسْتَلِمُ كَالْحُجَّاجِ أَرْكَانَهُ. وَنَقْلُبُ وَجُوهَنَا فِي سَمَاءِ سَقْفٍ يَكَادُ يَمْطُرُ عَلَيْنَا لُجَيْنَهُ وَعُقْبَانَهُ. وَنَشَاهِدُ رَخَاماً بَلَغَ فِي الْحَسَنِ وَالْمَحَلِّ الْأَقْصَى بِهِ "وَيَتَابَعُ وَصْفَهُ فَيَقُولُ" فَأَمَّا الْمِيَاهُ الَّتِي تَجْرِي فِي الْحَرَمِ عَلَى رَأْسِهَا. وَتَطُوفُ عَلَى مَوَاضِعِ الْمَنَافِعِ بِنَفْسِهَا. فَتَلْكَ نِعْمَةٌ مَقِيْمَةٌ. يَكْفِي اللهُ عَنْهَا فِي دَارِ الْمَقَامَةِ"<sup>(٥٩)</sup>.

ومثل ذلك الوصف ما جاء في حديثه عن الزاوية الصاحبية. إذ صور ما عملت فيها يد الصناع. وما أبرزوه من مهاراتهم في بنائها وتزيينها. يقول مشيراً إلى الوزير الصاحبى باني تلك الزاوية " وشرع في بناء الرُّواق على سطح الزاوية الصاحبية بباب الحرم الشريف. وأخذ راقم الرِّخَامِ فِي التَّوَشِيْعِ وَالتَّقْوِيْفِ. فَيَالِهَا أَلْوَاْحاً كُتِبَ فِيهَا مِنَ الْحَسَنِ كُلِّ شَيْءٍ"<sup>(٦٠)</sup>. وحين زاروا عجلون أعجب ابن نباتة بقلعتها. فراح يصف حسناتها وعلوها. فقال: " وهي في معارج السحب صاعدة سائدة في الجو كأنها في البحر على عمود الصبح قاعدة. مضيئة بين عقود الأنجم كأنها الدُرَّةُ الْبَيْتِيْمَةُ"<sup>(٦١)</sup>.

والتقط الكاتب صوراً من الحياة الثقافية والعلمية. وبخاصة في القدس الشريف. ومن مظاهرها التي تحدث عنها شيوخ المدارس والربط والخانقاوات والزوايا ودور الحديث. يقول: "ومن المباني المذكورة ما هو خُصِيصَ بِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ مَلِكِ الْأُمَرَاءِ"<sup>(٦٢)</sup> أعز الله أنصاره. ... من مدرسة علم. ... ودار حديث. ... وخانقاه تضيء عليها أنوار البركات الكوامل. ورباط. ومكتب للأيتام"<sup>(٦٣)</sup>.

وشاعت حلقات الذكر والتفسير وحَثَمَ الْقُرْآنُ فِي بَعْضِ الْمَدَنِ وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ نَبَاتَةَ حِينَ تَحَدَّثَ عَنِ إِسْهَامِ الْوَزِيرِ أَمِينِ الْمَلِكِ فِي إِقَامَتِهَا وَالْمَشَارِكَةِ فِيهَا. كَمَا يَبْدُو فِي قَوْلِهِ مُتَحَدِّثًا عَنِ حَلَقَاتِ الْقُدْسِ: " ثم تُلِيْتُ الْخَتَمَاتِ الَّتِي شَرَفَ اللهُ تَعَالَى ذِكْرَهَا. وَمَوَاعِدِ التَّفَاسِيْرِ وَالرِّقَائِقِ الَّتِي أَجْرَتْ الْأَوْقَافِ الصَّاحِبِيَّةِ أَجْرَهَا"<sup>(٦٤)</sup>. ويتجلى ذلك في حديثه عن مجالس مدينة الخليل: "وتُلِيْتُ الْخَتَمَاتِ. وَجَرَّتِ الْمَوَاعِدِ عَلَى عَوَائِدِهَا الْمُحْكَمَاتِ"<sup>(٦٥)</sup>. وفي قوله: " على عوائدها المُحْكَمَاتِ " دلالة على شيوخ المجالس الدينية هناك.

وتجلت في هذه الرحلة مظاهر من حياة الناس الاجتماعية وبخاصة تلك الدالة على بؤس طائفة منهم وفقرها. ولعلَّ إصرار الكاتب على إبراز هذا الجانب يعود إلى رغبته في تصوير جود الوزير الصاحبى وبهده المبسوطة لمعاونة الناس المحتاجين منهم والفقراء.

(٥٩) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٥.

(٦٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٦.

(٦١) المصدر نفسه. ص ٣٦٢.

(٦٢) يعني الوزير أمين الملك.

(٦٣) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٥.

(٦٤) المصدر نفسه. ص ٣٦٦.

(٦٥) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٧.

لقد صور ابن نباتة تهافت تلك الفئة من الناس على الوزير في القدس الشريف. فقال: "وَشَرَعْتَ صدقات السر والجهر. وقوبل السؤال ببحر لا يُسْمَعُ عنده نَهْرٌ. و غصنٌ بفقرائهم المكان والطريق. وجاءوا رجالاً ونساءً. .... فوضع مواضع النوال. وقُدِّرَت الكساوي حتى على المستورين والأطفال"<sup>(٦٦)</sup>.

ومثل تلك الصورة رسمها الكاتب لفقراء الرملة إذ قال: " ثم عَطَفْنَا الأقدارُ إلى جهة الرملة. وجاءت الوفود كالرملِ. وخَفَّت دراهم الصَّلَات. وثَقُلَت أكياسُ الحمل"<sup>(٦٧)</sup>.

وأشار ابن نباتة إلى مظاهر اجتماعية أخرى. ومنها انتشار طوائف الفقراء المتصوفة في القدس الشريف<sup>(٦٨)</sup>. وذكر أنواعاً من الأطعمة اشتهرت بها بعض المدن الفلسطينية آنذاك. مثل مدينة الخليل التي تميزت بعدسها. وهذا ما عبر عنه إذ قال إبان زيارتها: "وأكلنا من شهْيِ عدسه لُوناً"<sup>(٦٩)</sup>.

كما أشار إلى وجود المغتربين من البلاد الإسلامية في الأقطار الشامية وذلك حين تحدث عن زيارتهم للحصين يقول: " ووجدنا هناك فقيراً مغربياً حَسَنَ التلاوة وقد عجز عن المسير. .... فأمرتُ له الصدقاتُ الصاحبية بمركوب ونفقة ثمينة على السفر والإقامة والأحقه في ذلك بفقير عجمي ينشد لسان حاله: بي مثل مابك يا حمامة"<sup>(٧٠)</sup>.

ووصف ابن نباتة أثر الرحلة في نفوس المرتحلين. وكشف عن عظيم سعادتهم وهنائهم بما شاهدوه فيها. وما فتىء يتحدث عن ذلك الأثر على مدار الرحلة كلها. فيبعد أن زاروا مشهد زكريا ويحبي عليهما السلام. وقضوا ليلة بجوارهما. قال معبراً عن أنسهم: وأصبحنا وقد امتلأت القلوبُ سروراً والأعينُ نوراً"<sup>(٧١)</sup>.

ومن ذلك قوله عقب زيارة مشهد معاذ بن جبل: " فأنقذت أنوارُه القلوبَ من الهمِّ أي إنقاذ. وكدنا نُفَتِنُ بالأنس حتى نقول: أفتان أنت يا معاذ؟"<sup>(٧٢)</sup>.

وغمرتهم مشاعر الفرح والسرور حين وصلوا الغور ثم الخليل. وهذا ما توضحه أقوال ابن نباتة: " ثم نهضنا عن الغور. . . . وجَزْنَا مبتسمين"<sup>(٧٣)</sup>. " وطربنا لتلك المنازل. وكيف لا نَطْرِبُ لها وهي الخليلية! ". " ووجدنا من الهناء ألواناً"<sup>(٧٤)</sup>.

(٦٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٦٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٨. وانظر حديثه عن أهل عجلون. ص ٣٦٢.

(٦٨) انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٧.

(٦٩) المصدر نفسه. ص ٣٦٧.

(٧٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٢.

(٧١) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٨.

(٧٢) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.

(٧٣) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.

(٧٤) المصدر نفسه. ص ٣٦٧.

## القسم الثاني: الدراسة الفنيّة

### بناء الرحلة

عُني النقاد العرب القدامى عناية كبيرة بوحدة العمل الأدبي وتلاحم أجزائه. وصرفوا وقتهم وجهدهم في معالجة هذه القضية. وفي توجيه الأدباء إلى تلك الغاية. فقسّموا العمل الأدبي إلى مقدمة. ومطلع. وحسن تخلص. وخاتمة. ووضعوا لكل مصطلح منها شروطاً تجعله متسقاً مع غيره من المصطلحات كي يخرج العمل الأدبي كما يقول ابن الأثير "كأنما أفرغ إفرغاً"<sup>(٧٥)</sup>.

أما المطلع أو حسن الأبتداء. فهو "أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيّنة أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده. والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره ليبني كلامه على نسق واحد دلّ عليه من أول وهلة عُلّم بها مقصده"<sup>(٧٦)</sup>.

وطلب النقاد إلى الكاتب أن يبدأ بالتحميد. وأن يكرره "ثانية وثالثة". "ثم يذكر الشهادتين ويصلي على محمد. ويقول: أما بعد"<sup>(٧٧)</sup>. وحرصاً منهم على ذلك. فقد أطلقوا على الخطبة التي تخلو من حمد لله "البترء". ومن الصلاة على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم "الشوّه"<sup>(٧٨)</sup>.

وطلبوا إليه أيضاً أن يدعو للسلطان وأعيان الدولة. وأن يفعل ذلك في الخاتمة. وعدّوه "من محاسن الكتابة"<sup>(٧٩)</sup>.

أما التخلّص. فهو "أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره. وجعل الأول سبباً إليه. فيكون بعضه أخذاً برقاب بعض. من غير أن يقطع كلامه. ويستأنف كلاماً آخر"<sup>(٨٠)</sup>.

ورأى النقاد أن تناسب الخاتمة موضوع النصّ الأدبي<sup>(٨١)</sup>. وأن تتضمن "معنى تاماً يؤذن بأنه الغاية والمقصد والنهاية"<sup>(٨٢)</sup>. وأن يكون "مستعذباً حسناً لتبقى لذته في الأسماع"<sup>(٨٣)</sup>.

راعى ابن نباتة في رحلته ما اشترطه النقاد. ولذا جاءت عملاً أدبياً متماسك البناء. فقد بدأها بحمد الله وثنى بالصلاة على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وآله الطاهرين. ثم

(٧٥) ابن الأثير. المثل السائر. ٢٤٤/٢.

(٧٦) الحلبي. حسن التوسل. ص ٢٥١.

(٧٧) معالم الكتابة. ص ٧٢.

(٧٨) انظر الجاحظ. البيان والتبيين. ٦/٢. وانظر ص ٧٣.

(٧٩) معالم الكتابة. ص ١٠٧.

(٨٠) المثل السائر. ٢٤٤/٢.

(٨١) انظر القرطاجني. منهاج البلغاء. ص ٣٠٦.

(٨٢) د. محمد عبد المطلب. اتجاهات النقد. ص ١٨٠. انظر د. يوسف بكّار. بناء القصيدة. ص ٣٠٢.

(٨٣) حسن التوسل. ص ٢٥٥.

ذكر أما بعد. قال: "الحمد لله الحافظ سرّ ملكه بأمينه. ..". "ووصلى الله على سيدنا محمد أيد بالروح الأمين. وعُضد بوزراء آله وصحبه العُرّ الميامين. وسلّم عليه وعليهم سلاماً باقياً إلى يوم الدين. أما بعد"<sup>(٨٤)</sup>. وانتقل بعد ذلك إلى الإشادة بالوزير الأميني ومدحه والدعاء له. وكرّر الدعاء غير مرة في رحلته. وذلك كله اقتضته طبيعة المقام. فهذه الرحلة كانت بصحبة الوزير. وكتبها ابن نباتة بناءً على طلبه إليه.

ثم راح يتحدث عن دواعي الرحلة. فيوم الانطلاق ووقته. والطبيعة وقتذاك. ثم سرد أسماء الأماكن التي زاروها أو مرو بها واحداً تلو الآخر مراعيّاً في ذكرها الترتيب المكاني والزماني<sup>(٨٥)</sup>. ووصفاً مشاهداتهم. وأعمالهم. والحوادث التي جرت معهم هناك.

وخصّص الكاتب الخاتمة للدعاء للوزير. وبدا فيها متأثراً بالقرآن الكريم مما زاد في جمالها ولذتها في أسماع المتلقين. قال: " والله المسؤول أن يجعل في البقاء الصاحبي سلوة عن كلّ فقيد. ... ويرزقنا في شكر نعمة لسانا لفظه ذهب. وذهناً بصره حديد"<sup>(٨٦)</sup>.

إن المحاور السابقة جميعها تصب في موضوع واحد وهو الرحلة ومجرباتها. الأمر الذي جعل بناء الرحلة قوياً متلاحماً. ولكن على الرغم من ذلك فإن هناك عاملاً أدى إلى انقطاع السرد أحياناً. وبالتالي إضعاف البناء. وهو أنّ الكاتب ضمّن رحلته أشعاراً من نظمه. ومن نظم شعراء آخرين سبقوه<sup>(٨٧)</sup>. ولعل العرف النقدي الذي كان سائداً وفي وقته وقبله يغفر له هذا الجانب. فالنقاد العرب القدامى كانوا يعدّون ذلك التضمين " من أحسن الأشياء في الكتابة"<sup>(٨٨)</sup>.

وحققت رحلة ابن نباتة الوحدة العضوية. ذلك أن بناءها قائم على الأسلوب القصصي. وهذا الأسلوب جعل لها بداية وهي دواعي الرحلة ومكان الانطلاق ووقته. وأحداثاً متسلسلة حسب التسلسل الزمني والمكاني فالنهاية. وهي عودتهم إلى الديار. الأمر الذي يجعل من الصعب على المرء أن يأتي بموضوع مكان موضوع. لأن ذلك سيحدث في الرحلة تشويهاً وخلالاً. فعلى سبيل المثال لا يمكن الحديث عن أعمال المرتحلين في القدس قبل الحديث عن دواعي الرحلة ووقتها. كما لا يمكن أن نضع مشاهداتهم في الخليل قبل وصف ما رأوه في عجلون وهكذا.

### اللغة والأسلوب

اهتم النقاد العرب القدامى ومنهم نقاد العصر المملوكي بلغة الأدب عامة. فحثوا الأدباء على الابتعاد عن الألفاظ الغريبة. وحوشي الكلام. وأن يلتزموا اللغة الفصيحة السهلة. فابن

(٨٤) ثمرات الأوراق. ص ٥٩.

(٨٥) انظر ذلك تحت عنوان "منهج ابن نباتة في تدوين رحلته".

(٨٦) ثمرات الأوراق. ص ٣٧٠.

(٨٧) سيأتي الحديث عن ذلك تحت عنوان "الاتباعية".

(٨٨) معالم الكتابة. ص ١٠٧.

شيث القرشي يرى أن العمل الأدبي كله ينبغي أن تكون ألفاظه "أهلية إنسية ولا تكون وحشية ولا منسية"<sup>(٨٩)</sup>. كما يرى أن أكثر الأدباء المطبوعين يميلون إلى الأسلوب السهل "البعد من الكلفة"<sup>(٩٠)</sup>.

ودعا أولئك النقاد الأديب إلى الملاءمة بين ألفاظه ومعانيه. وبيّنوا أن لكل موضوع أدبي لغته الخاصة به. وأن اللغة ينبغي أن تُراعى مقتضى الحال. يقول شهاب الدين محمود الحلبي: "ومما يتعيّن على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسك به هو إعطاء كل مقام حقه"<sup>(٩١)</sup>.

لم يخرج ابن نباتة عن هذه المقاييس. فقد جسّدها في أدبه الذي وصل إلينا. ومن هنا أشاد به نقاد عصره. يقول عنه الصفدي تفرّد "بلطف النظم وذنوبه اللفظ. وجودة المعنى. وغرابة المقصد. وجزالة الكلام. وانسجام التركيب. وأما نثره. فإنه الغاية في الفصاحة."<sup>(٩٢)</sup>.

اتّسمت "حظيرة الأُنس" بالفصاحة والسهولة والإيجاز. ولعل هذه السمة الأخيرة مردها إلى صغر حجم الرحلة وعدد أوراقها المحدود. كما اتّسمت بالملاءمة بين الألفاظ والمعاني. فهو حين يمدح الوزير الأميني. ويصف المدن والطرق. يأتي بلغة جزلة فصيحة موجزة. وهذا سبيل المادح. في رأي ابن رشيق وهو "أن يسلك طريقة الإيضاح. والإشادة بذكر الممدوح. وأن يجعل معانيه جزلة. وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية. ويجتنب مع ذلك كله التقصير والتجاوز والتطويل"<sup>(٩٣)</sup>. ومن الأمثلة على ذلك قوله: "فإن الله سبحانه وتعالى. .. جعل لكل دولة قائمة وزيراً قائماً بتدبيرها. مُفَرِّعاً غصن العلم بثمرها. مُنْفِذاً أمر سلطانها. ومبلغاً أحكام عدلها وإحسانها. يبني ممالكها على الأسل من أقلامه."<sup>(٩٤)</sup>. وحين يصف الكاتب حالته النفسية الحزينة. ويرثي ولده عبد الرحيم. فإنه يأتي بالألفاظ السهلة الرقيقة المعبرة عن معاني الأسي والألم. وهذا هو سبيل لغة الرثاء. يقول: "وذلك أني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي مقيماً بين المقابر إقامة فتت حبة قلبي على قطعة من كبدي. ..."<sup>(٩٥)</sup>.

(٨٩) معالم الكتابة. ص ٩٣.

(٩٠) المصدر نفسه. ص ١٠٣-١٠٤. وانظر ابن طباطبا. عيار الشعر. ص ١٢٦. العسكري. الصناعيتين. ص ١٧٩. ابن رشيق. العمدة. د. عبدة فلقيلة. النقد الأدبي في العصر المملوكي. ص ٢٨٦-٢٨٧. د.

محمود رزق سليم. عصر سلاطين المماليك ج ٤م ٣٨١/٨. د. رائد عبد الرحيم. فن الرثاء. ص ٣٢١. (٩١) حسن التوسل. ص ٣٣٠. وانظر الجرجاني. الوساطة بين المتنبّي وخصومه. ص ٣٣. ابن الأثير. المثل السائر. ١٦٨/١. د. إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ص ٣٢٢. د. عبد الفتاح عثمان. نظرية الشعر. ص ١٢٦. محمد البرازي. في النقد القديم. ص ٢٧٢.

(٩٢) الصفدي. الوافي بالوفيات. ٣١١/١-٣١٢. وانظر ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ٧٦/١١. السخاوي. الذيل التام على دول الإسلام. ص ٢٢٣. ابن حجر. الدرر الكامنة. ٣٣٩/٤.

(٩٣) العمدة. ١٢٨/٢.

(٩٤) ثمرات الأوراق. ص ٣٥٩.

(٩٥) المصدر نفسه. ص ٣٦٠. وانظر ص ٣٧٠.

وامتازت لغة "حظيرة الأنس" باستخدام ألفاظ إسلامية. ومصطلحات علمية. وأسماء شخصيات تاريخية. وفنون بديعية متنوعة<sup>(٩٦)</sup>.

أما أسلوب ابن نُباتة في رحلته. فتميز بميزات عدة منها

#### الأثر الإسلامي

حثّ النقاد العرب القدامى الكاتب على التزوّد بالثقافة الإسلامية. ونصحوه أن يبدأ بـ "حفظ كتاب الله تعالى وإدامة قراءته وملازمة درسه. وتدبّر معانيه. حتى لا يزال مصوراً في فكره. ودائراً على لسانه. ممثلاً في قلبه. وذاكراً له في كلّ ما يرد عليه من الوقائع التي تحتاج إلى الاستشهاد به فيها. .. وكفى بذلك مُعيناً في قصده. ومُغنياً له عن غيره"<sup>(٩٧)</sup>.

عُرف ابن نُباتة بثقافته الدينية الواسعة. هذه الثقافة صبغت أدبه بصبغتها. ومنه رحلته "حظيرة الأنس". فقد بدأها الكاتب بحمد الله والثناء عليه. ثم بالصلاة على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ووظف فيها حشداً كبيراً من الألفاظ والعبارات الإسلامية منها على سبيل المثال: الأجر. والروح الأمين. ويوم الدين. والكعبة. والطّواف. والرحمة. والصالحون. وجنة الخلد. ومسجد. ومشهد. وطهارة. ودين. وصلاة. وحسنات<sup>(٩٨)</sup>.

وتظهر الألفاظ الإسلامية في قوله متحدثاً عن الحرم القدسي الشريف: "فتلك نعمة مقيمة. يكافيء الله عنها في دار المقامة. وحسنة في المعنى والصورة جارية إلى يوم القيامة"<sup>(٩٩)</sup>. ويقول: "وقرعنا أبواب السماء بأدعية فاتحة. فقال النَّجْحُ عُقَيْبُ الفاتحة أمين"<sup>(١٠٠)</sup>.

أما المعاني الإسلامية. فبرزت في غير وجه منه الأدعية التي ملأ بها ابن نُباتة رحلته. وجلّها أدعية اختص بها الوزير كما يبدو في قوله: "أعلى الله تعالى أبدأ شأنه. ورفع على فرق الفرقدين مكانه"<sup>(١٠١)</sup>. وقوله: "تقبّل الله عمله الصالح. ومتجره الراح"<sup>(١٠٢)</sup>.

ومن المعاني الإسلامية حديثه عن الأجر الذي سيلقاه فاعل الخير لقاء أعماله التي يبتغي بها وجه الله<sup>(١٠٣)</sup>.

(٩٦) سيأتي الحديث عن ذلك في مكانه من هذا البحث.

(٩٧) حسن التوسل. ص ٧٣.

(٩٨) انظر ثمرات الأوراق. ص ٣٥٨. ٣٥٩. ٣٦١. ٣٦٤. ٣٦٥. ٣٦٧. ٣٦٨. ٣٦٩.

(٩٩) المصدر نفسه. ص ٣٦٥.

(١٠٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٨.

(١٠١) المصدر نفسه. ص ٣٥٩.

(١٠٢) المصدر نفسه. ص ٣٦٠.

(١٠٣) انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٧. ٣٦٩.

ويظهر تأثر ابن نباتة بالقرآن جلياً. ويبدو ذلك في المعاني. والصور. والاقْتباس. والقصص.

أما الاقتباس. فقد جاء دعماً وتأكيداً لمعانيه التي عبّر عنها. فهو إذ مدح الوزير الأميني. ووصف تقواه اقتبس قوله تعالى " ما ضَلَّ صاحبُكم وما غوى " (١٠٤).

وعبّر الكاتب عن أثر الرحلة في نفسه. وعن دورها في التخفيف عنه. فاقتبس قوله تعالى: " الحمدُ لله الذي أذهبَ عَنَّا الحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ " (١٠٥). واقتبس قوله تعالى: " وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميقٌ " (١٠٦) وذلك حين صورَ ثَوافُدَ الفقراء من كلِّ حَدَبٍ وصوب. على ممدوحه لينالوا عطاءه.

وبرز تأثره بمعاني القرآن الكريم وصوره في غير موضع في هذه الرحلة. ففي قوله واصفاً عمارة الوزير في القدس الشريف: " فجنينا من تلك المباني بساتين دانية القطوف " (١٠٧). ينظر إلى قوله تعالى في وصف الجنة: " قطوفها دانية " (١٠٨).

ويتحدث ابن نباتة عن الثياب التي تصدق بها ممدوحة على فقراء القدس وأغنيائهم " اتخذ الفقراء والأغنياء من أصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين " (١٠٩). فهو يتأثر بقوله تعالى: " والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم طعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. " (١١٠).

وصور الكاتب مقام معاذ بن جبل. وزيارتهم له. فقال: " وأمسكنا عنده من الدعاء بعروة لا تنفصم " (١١١). فهو يأخذ معانيه من قوله تعالى: " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليم " (١١٢).

ووشح الكاتب رحلته ببعض قصص القرآن الكريم. و استفاد من دلالاتها في التعبير عن معانيه. وفي تشكيل صورته. فحين وصف غزارة الأمطار التي نزلت على الصخرة المشرفة. استوحى قصة سيدنا موسى عليه السلام. فقال: " واستمرت السحب حتى عادت الصخرة كحجر موسى تتفجر منها الأنهار " (١١٣).

- |       |  |
|-------|--|
| (١٠٤) | المصدر نفسه. ص ٣٥٩. سورة النجم. آية ٢.                                 |
| (١٠٥) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦١. سورة فاطر. آية ٣٤.                               |
| (١٠٦) | المصدر نفسه. ص ٣٦٦. سورة الحج. آية ٢٧.                                 |
| (١٠٧) | المصدر نفسه. ص ٣٦٥.  |
| (١٠٨) | سورة الحاقة. آية ٢٣.   |
| (١٠٩) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٦.  |
| (١١٠) | سورة النحل. آية ٨٠.  |
| (١١١) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٩.  |
| (١١٢) | سورة البقرة. آية ٢٥٦. ولمزيد من الأمثلة انظر ثمرات الأوراق. ص ٣٦٢-٣٦٣. |
| (١١٣) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٤.  |

ووظف قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام والنار إذ زار الخليل. وتحدّث عن الحرم الإبراهيمي فيها ".... وقلنا لأنفاس الشوق كوني برداً وسلاماً على إبراهيم" (١١٤).

ويمدح ابن نُبّاتة الوزير الأميني. ويشيد بأمانته. فيستوحي قصة يوسف عليه السلام وأمانته مع عزيز مصر. فيقول: " والخزائن التي كم قال لها تدبيره. إنني حفيظٌ عليهم. فقال الملك: فإنك لدينا مكيّنٌ أمين" (١١٥).

واستحضر كذلك قصة نوح عليه السلام والظوفان إذ قال مصوراً زيارتهم مشهد معاذ ابن جبل رضي الله عنه " وأوينا من طوفان الذنوب إلى جبل ينجو به من يعتصم" (١١٦).

وتأثر ابن نُبّاتة بالمعاني الواردة في بعض الأحاديث النبوية. واستخدم مصطلحات من علم الحديث (١١٧). إلا أن هذا الأثر بدا ضئيلاً قياساً إلى الأثر القرآني. ففي قوله متحدثاً عن المباني التي شادها الوزير في القدس. وعن جمالها وحسن صنعها: " ولحظنا من الظلال السيفية جنةً نشأت. وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف" (١١٨). يضمن الحديث النبوي الشريف: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" (١١٩).

ويتجلى تأثر ابن نُبّاتة بالحديث في قوله: " وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه. .. وكدنا نُفُتُنُ بالأنس حتى نقول: أفْتَانُ أنت يا معاذ؟" (١٢٠). فهو يستوحي حديث الرسول. صلى الله عليه وسلم. إذ قال عن معاذ حين سمع أنه أطل الصلاة بالناس: " فْتَان. فْتَان. فْتَان. ثلاث مرات" (١٢١).

نقل الكاتب لفظة الفتنة التي وردت في الحديث من معناه الدال على فتنة الناس عن الحق والإسلام. إلى الفتنة بالجمال والروعة بمعنى افتتان الناس بمشهد معاذ وما عليه من هالة وهيبة وجلال.

### الأثر التاريخي

دعا النقاد العرب القدامى إلى "مطالعة كتب التواريخ والأخبار" ذلك أنها "توقعه على مفاصل الأمور. وتريه ما جرى لأولئك الصدور من الورود والصدور" (١٢٢). ولأنها تريه ما

- 
- (١١٤) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٧.  
 (١١٥) المصدر نفسه. ص ٣٦٧. وانظر ٣٦٨.  
 (١١٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.  
 (١١٧) سيايحي الحديث عن ذلك تحت عنوان "مصطلحات العلوم"  
 (١١٨) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٥.  
 (١١٩) صحيح البخاري ٨٧٢/٢.  
 (١٢٠) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٩.  
 (١٢١) صحيح البخاري ١٣٨/٢.  
 (١٢٢) معالم الكتابة. ص ٨٩.

استتر عنه من صغير أحوالهم والكبير" (١٢٣). كما تساعده على ربط أحداث الماضي بأحداث الحاضر. وقد برز هذا الأثر بصورة جلية في "حظيرة الأُنس". وهو ما أطلق عليه بعض النقاد القدامى التلميح (١٢٤). ومن مظاهره التي تجلّت في هذه الرحلة استحضار أسماء شخصيات عربية مشهورة. بقصد الربط بينها وبين ممدوحه الوزير الأُميني. كما يبدو في استيحائه اسم الجاحظ وكتابه (البيان والتبيين) ليقرن بينه وبين ممدوحه في البلاغة والفصاحة والقدرة الأدبية. يقول: "... وإذا حمل بنائه الأدب رَوَيْنا عن ابن بحر كتاب بيانه في الفضل وتبيينه" (١٢٥).

ويتحدث الكاتب عن ممدوحه وجوده وكرمه. فيوظف شخصية حاتم الطائي ليربط بينهما في هذا المجال. فيقول: "وجاءت الذّراهُم بعد التفاصيل بالجُمْل. وقال جودها لحاتم.." (١٢٦).

ويصوّر ابن نباتة حال المرتحلين عقب مفارقتهم الغور. فيشير إلى قصّة لبيد وجزعه على أخيه أُرْبُد إذ قال: "وَجَزْنَا مَبْتَسِمِينَ فما بكينا بكاء لبيد يوم فراق أُرْبُد" (١٢٧).

### مصطلحات العلوم

يتميز أسلوب ابن نباتة في "حظيرة الأُنس" بكثرة توظيف المصطلحات العلمية. وهذا أمر أدى إلى بروز الصنعة أحياناً دون تقديم فائدة تُذكر لنصّه الأدبي. ولعل ذلك مرده إلى رغبته في مجازاة ذوق عصره. وعدد من نقاده الذين استحسنا زركشة لغة الأدب بتلك المصطلحات. واستخدامها قانوناً يصدر عن نقد الأدب. وحكمهم على تميزه (١٢٨).

استوحى الأديب بعض المصطلحات النحوية منها "الاسم". و "الفعل". و "الحرف". ويتجلى ذلك في قوله واصفاً مجاوزتهم الغور. وتسمّمهم هواء القدس الشريف: "وانتشفنا من تلقاء طيبة الاسم أطيب العرف. وسلطنا بحرفٍ وادبها مستبشرين. فكانت طيبة الاسم والفعل والحرف" (١٢٩).

ويوظف قاعدة نحوية مفادها أنّ ترخيم المنادى يُنقصُ الاسم المرخّم بعض حروفه. ويحاول نقض هذه القاعدة. فيبين أنّ رخام المسجد الأقصى يزيد في جماله ولا ينقصه. يقول: "وتمت به" "أي الرخام" في بهجة المكان زيادة تُخالف قول النحاة: إن في الترخيم نقصاً" (١٣٠).

- |       |   |
|-------|---|
| (١٢٣) | حسن التوسل. ص ٨٩.   |
| (١٢٤) | انظر المصدر نفسه. ص ٢٤٢.  |
| (١٢٥) | ثمرات الأوراق. ص ٣٥٩.   |
| (١٢٦) | المصدر نفسه. ص ٣٦٦.   |
| (١٢٧) | المصدر نفسه. ص ٣٦٩ وانظر ص ٣٦٢.   |
| (١٢٨) | للتفصيل انظر الصفدي. الوافي. ٣/٣٦٤. السيوطي. بغية الوعاة. ١/١٣٥. د. عبده قلقيلة. النقد الأدبي. ص ٢٨٧. د. هنريّ الصانع. اتجاهات الشعر العربي. ص ٤٢٦. د. رائد عبد الرحيم. فن الرثاء. ص ٣٥٣. صورة المغول في الشعر العربي في العصر المملوكي. ص ١٨٣. |
| (١٢٩) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٩.   |
| (١٣٠) | المصدر نفسه. ص ٣٦٥. ولا يخفى على القارئ ما في لفظة "الترخيم" من تورية.  |

واستخدم ابن نباتة مصطلحات عروضية مثل "أسباب" و "الوافر" و "المديد" في قوله بمدح الوزير: "ويصل أسبابنا أبداً بتحريره الوافر وظلّه المديد"<sup>(١٣١)</sup>.

وأتى الكاتب بمصطلحات من علم الحديث مثل الرواية والسماع<sup>(١٣٢)</sup>. كما أتى بمصطلحات صوفية حين تحدّث عن اهتمام الوزير بالمتصوفة في القدس الشريف ومنها الفقراء والمريد<sup>(١٣٣)</sup>. وتطرّق إلى بعض أفكارهم. كما يبدو في قوله واصفاً النشوة الروحية التي شعر بها المرتحلون إبان دخولهم إلى الحرم القدسي: "وصرنا من الصالحين عند زيارة الأقصى فمشينا على الماء"<sup>(١٣٤)</sup>. ولا شك أن هذه الأفكار تحملها مصطلحات خاصة بأهل التصوف.

### الاتباعية

حتّ النقاد العرب القدامى الأدباء على الوقوف على كلام المتقدمين ومعانيهم. وجعلوا ذلك وسيلة من وسائل البلاغة. والتمكّن فيها<sup>(١٣٥)</sup>. يقول ابن شيث القرشي ناصحاً الأديب إبان حديثه عن الزاد الثقافي الذي ينبغي عليه أن يتزوّد به: "وليتأمل المعاني التي غني بها الكتاب وعانوها. فإنها تُعينه. ويغزُرُ بها في الكتابة معينه. والحفظ في ذلك ملاك الأمر. فإنه يؤهّل ويدرّبُ ويُسهّل المطلوب ويقرب"<sup>(١٣٦)</sup>. ورأى النقاد أيضاً أن على الأدباء إذا وظّفوا معاني سابقين أن "يكسوها ألفاظاً من عندهم. ويبرزوها في معارض من تأليفهم. ويوردوها في غير جليتها الأولى. ويزيدوها في حسن تأليفها. وجودة تركيبها. وكمال جليتها. ومعرضها"<sup>(١٣٧)</sup>.

تعكس "حظيرة الأنس" اهتمام ابن نباتة بالموروث الأدبي والثقافي. ومن مظاهره فيها التضمين. وحلّ المنظوم. والأمثال.

دعا النقاد العرب القدامى الكتاب إلى تضمين الأبيات الشعرية في كتاباتهم. ورأوا فيها حلية وجمالاً وحُسناً إذا ما أوردتها الكاتب في موضعها الصحيح من النص<sup>(١٣٨)</sup>. وقد شاع التضمين في فنون النثر العربي القديم. ومنها أدب الرّحلات. وهذا ما عبّر عنه د. حسين نصّار إذ قال: "ولعلّي لا أخطئ إذا زعمتُ أنّ جميع كتّاب الرّحلات عدّوا تضمين الأشعار تأكيداً لكلامهم. وحلية لأسلوبهم"<sup>(١٣٩)</sup>.

- |       |   |
|-------|---|
| (١٣١) | المصدر نفسه. ص ٣٧٠.   |
| (١٣٢) | انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٥.  |
| (١٣٣) | انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٦.  |
| (١٣٤) | المصدر نفسه. ص ٣٦٤.   |
| (١٣٥) | انظر معالم الكتابة. ص ٨٩.   |
| (١٣٦) | معالم الكتابة. ص ٤٠. وللتنصيل انظر حسن التوسل. ص ٨٩. نظرية الشعر. ص ٧٩. د. بدوي طبانة. السرقات الأدبية. ص ٥١.   |
| (١٣٧) | العسكري. الصناعتين. ص ٢١٨. انظر ابن وكيع. المنصف ١٠٢/١٢. ابن حجة. خزنة الأدب ٢٦٠/٢. د. بدوي طبانة. أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية. ص ١٧٢. السرقات الأدبية. ص ١٨٧. |
| (١٣٨) | انظر معالم الكتابة. ص ١٠٥. ص ١٣٨.   |
| (١٣٩) | أدبيات أدب الرحلة. ص ١٢٧.   |

أما حلّ المنظوم. فقد اهتمّ به أولئك النقاد. ووضعوا له قواعد وشروطاً. وعدّه بعضهم أساس الكتابة وجوهرها. وهذا ما ذكره وعلمه ابن شيث القرشي فقال: "قال الحدّاق من أهل هذه الصّناعة: إنّ الكتابة هي حلّ المنظوم من الشعر. إذ معاني الشعر قد استخدمت لها الألفاظ كلّها العناية الخاصة بها. فإذا كان الكاتب ماهراً نظراً إلى المعنى الذي يقصده من الأشعار فحلّ نظامه. وحلّى به كلامه"<sup>(١٤٠)</sup>.

ورأى نقاد آخرون أنّ على الأديب التقليل من حلّ المنظوم في نثره. وإذا استخدمه أن يكون ذلك عفو الخاطر لا تصنّع ولا تكلف فيه. وهذا ما يبدو في قول شهاب الدين محمود الحلبي يوجّه الكاتب: "ولا ينبغي أن تعتمد في جميع كتابتك على الحلّ فيتكئ خاطر ك على ذلك. ويذهب رونق الطبع السليم. وتقلّ مادة الانسجام. بل يكون استعمال ذلك كاستعمال البديع إذا أتى عفواً من غير تكلف ليكون مثل الشاهد على صحّة الكلام. والدال على الاطلاع كالرقم في الثوب. والشذرة في القلادة. والواسطة في العقد. إذ لا ينبغي أن تخلي كلامك من نوع من أنواع المحاسن"<sup>(١٤١)</sup>.

ويرى الحلبي أيضاً أن على الكاتب إذا "هدم البيت المنظوم" أن يبرزه في "أحسن سلك وأجمل قالب. وأصحّ سبك". وأن يكمله بما يناسبه "من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة". "وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء. فإن كان نسيباً. وتأتى له أن يجعله مديحاً فليعمل. وكذلك غيره من الأنواع"<sup>(١٤٢)</sup>.

وقد شاعت ظاهرة الاحتذاء بين الأدباء في العصر المملوكي. فعني الكتاب بتضمين أشعار من سبقوهم وبحلّها في كتاباتهم النثرية. وبخاصة شعر المتنبي. وهذا ما عبر عنه الحلبي في قوله: "وكثر الاستشهاد بشعره "أي المتنبي". حتى قلّ من يجله. وحتى اكتفي بالبيت الواحد من شعره في الدلالة على المقصد أو بلوغ الغرض في الجواب"<sup>(١٤٣)</sup>. وعلل ذلك الإقبال بقوله: إنّ شعر المتنبي قريب "من أسلوب الخطابة والكتابة". وإنه "ينطق عن أسنة الناس في محاوراتهم"<sup>(١٤٤)</sup>.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ النقاد والأدباء في العصر المملوكي كانوا منقسمين إلى فريقين: فريق يقدم أبا تمام. وآخر يقدم المتنبي<sup>(١٤٥)</sup>. وكان ابن نباتة ممّن يقدمون المتنبي ويهتمون بشعره<sup>(١٤٦)</sup>. وتجلّى ذلك في أدبه عامة ومنه حظيرة الأنس إذ استفاد منه فيها. فأكثر من تضمينه

- |       |   |
|-------|---|
| (١٤٠) | معالم الكتابة. ص ٩٦   |
| (١٤١) | حسن التوسل. ص ٣٢٩.  |
| (١٤٢) | المصدر نفسه. ص ٣٢٥. ٣٢٦. ٣٢٨.   |
| (١٤٣) | المصدر نفسه. ص ٩٣.  |
| (١٤٤) | المصدر نفسه. ص ٩٣.  |
| (١٤٥) | للتفصيل انظر فن الرثاء. ص ٣٦٤.  |
| (١٤٦) | انظر ابن حجة. خزنة الأدب. ٢٠٧/١-٢٠٨. ثمرات الأوراق. ص ٤٨. فن الرثاء. ص ٣٦٤. |

وحلّه في المواضع التي تلائم أفكاره. وتخدم صورته ومعانيه. ومن أمثلة التضمين أنه حين وصف جمال الطبيعة في فصل الربيع برفقة الوزير استوحى قول المتنبي: (١٤٧)

لَقَدْ حَسَنْتُ بِكَ الْأَيَّامَ حَتَّى كَأَنَّكَ فِي فَمِ الدَّهْرِ ابْتِسَامُ

ويتحدث عن مدة إقامتهم في القدس الشريف. وهي ثلاثة أيام. ويعبر عن رغبتهم النفسية في أن تتجاوز إقامتهم تلك المدة. فيضمن شاهداً نحوياً مشهوراً: (١٤٨)

خَرَجْنَا عَلَى أَنَّ الْمَقَامَ ثَلَاثَةٌ فَطَابَ لَنَا حَتَّى أَقْمَنَا بِهَا عَشْرًا

ويشيد الكاتب بالمباني التي أقامها الوزير الأميني في القدس الشريف. ويكشف عن دورها في رعاية اليتامى والأرامل. فيضمن عجز بيت لأبي طالب يمثل ذلك الدور. ويلائم ذلك الموقف: (١٤٩)

وَأَبِيضٌ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

وجاء التضمين في قول ابن نباتة: "... ورباط ومكتب هما كما قيل: ثمال اليتامى عصمة للأرامل" (١٥٠).

وحلّ ابن نباتة أبياتاً من شعر المتنبي. وأتى ذلك عفو الخاطر من غير تكلف أو تصنع. فأضفى جمالاً على نصّه. وزاد من جماله أنه جاء ملائماً لأفكاره ومعانيه وصوره التي عرضها في رحلته. فمن ذلك قوله يمدح الوزير. ويصف قدرته على الكتابة: "وتنبّه قلمه ونامت ملء أجفانها السيوف" فهو ينثر قول المتنبي. وينقله من الفخر إلى المديح: (١٥١)

أَنَا مَلءٌ جُفُونِي عَنْ سُورِدهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَاهَا وَيَخْتَصِمُ

ويعبر عن حب المرتحلين للأماكن التي مروّ بها. فيقول: "وقطعنا بالكسوة ليلاً طائلاً نداؤه: كل ليل للعاشقين طويل" (١٥٢). فهو يهدم قول المتنبي: (١٥٣)

لِيَالِي بَعْدَ الظَّاعِنِينَ سُكُوكٌ طَوِيلٌ وَلَيْلُ الْعَاشِقِينَ طَوِيلٌ

أما المثل. فقد عدّ النقاد العرب القُدّامي التمثيل به "في موضعه من أحسن أنواع الكتابة. وأعظم فنونها" (١٥٤). وحثوا الأديب على "النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نظماً ونثراً" (١٥٥).

- |       |   |
|-------|---|
| (١٤٧) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦١. اليازجي. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب. ص ١٠٠. |
| (١٤٨) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٨.   |
| (١٤٩) | الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص ١٤.  |
| (١٥٠) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٠.   |
| (١٥١) | العرف الطيب. ص ٣٤٣.   |
| (١٥٢) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٩.   |
| (١٥٣) | العرف الطيب. ص ٣٩٦.   |
| (١٥٤) | معالم الكتابة. ص ١٣٨. وانظر ص ١٠٩. حسن التوسل. ص ٩٧.                      |
| (١٥٥) | حسن التوسل. ص ٩٦.   |

لم تبرز الأمثال بصورة جليّة في "حظيرة الأُنس". واكتفى ابن نباتة بإيراد مثليين. ويبدو ذلك في حديثه عن جود ممدوحه الذي فاض عن حاجة سائله: ".... وقال جودها لحاتم: هذه التي لا ناقة لك فيها ولا جمل"<sup>(١٥٦)</sup>. وفي حديثه عن وصولهم الخليل "وَحَمَدْنَا عند صباح ذلك الوجه السرى"<sup>(١٥٧)</sup> يستوحي المثل القائل: "عند الصباح يحمد المرء السرى"<sup>(١٥٨)</sup>.

### الفنون البيديّة

اهتم نقاد العصر المملوكي وأدباؤه بالبيديع. فغزت أنواعه الموضوعات الشعريّة والنثرية المختلفة. وبلغ استخدامها حدّ الإسراف والعلو في أحيان كثيرة. وظهرت في فنونه مذاهب. دعا روادها إلى ضرب أو أكثر من ضروبه. ودافعوا عنها. ومن المذاهب التي ظهرت وقتذاك مذاهب التورية والجناس<sup>(١٥٩)</sup>.

وتجلّى عنايتهم بالبيديع في ذلك العدد الضخم من الكتب التي ألّفت فيه. وفي تنافس النقاد في توليد أنواعه وتنميتها. وبعض تلك الكتب وصل إلينا. وبعضها الآخر ضاع أو ما زال محفوظاً في خزائن المخطوطات حول العالم.

ومن الكتب المنشورة كتابا الصفدي "جنان الجناس". و "فضّ الختام عن التورية والاستخدام". وكتابا ابن حجة الحموي "كشف اللثام عن التورية والاستخدام", و "خزانة الأدب وغاية الأرب". وكتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسّل" لشهاب الدين محمود الحلبي. و "جنى الجناس" للسيوطي. هذا فضلاً عن قصائد البيديعات<sup>(١٦٠)</sup> وشرحها. ومنها "نتائج الألمعية في مدح خير البرية" لصفى الدين الحلبي. و "الحلة السيرا في مدح خير الورى" لابن جابر الأندلسي.

أما الكتب التي ضاعت أو لم تُنشر بعدُ. فكثيرة. ومنها كتاب "الترصيع في علم البيديع"<sup>(١٦١)</sup>. لبرهان الدين الرّبعي ت ٧٣٢ هـ. و "وروضة المجالس في بديع المجانسة"<sup>(١٦٢)</sup> لشمس الدين النواجي ت ٨٥٩. وكتاب "زهر الربيع"<sup>(١٦٣)</sup> لجمال الدين بن ريان ت ٧٦٩ هـ أو ٧٧٠ هـ. و "إحكام التأسيس في أحكام التجنيس". و "الإضاءات والإنارات في البيديع" المسمى

(١٥٦) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٦. وانظر المثل في العملي. الكشكول. ٤٧/٢.

(١٥٧) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٧.

(١٥٨) الكشكول. ٣٤٥/١.

(١٥٩) للتفصيل انظر فن الرثاء. ص ٣٧٥-٣٧٩.

(١٦٠) هي قصائد "طويلة في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم. على بحر البسيط. وروى الميم المكسورة. يتضمّن كل بيت من أبياتها نوعاً من أنواع البيديع. يكون هذا البيت شاهداً عليه. وربما ورى باسم النوع البيديعي في البيت نفسه. في بعض القصائد". علي أبو زيد. البيديعات في الأدب العربي. ص ٤٦.

(١٦١) الصفدي. أعيان العصر. ١٠٥/١.

(١٦٢) السيوطي. حسن المحاضرة. ٤٦٧/١.

(١٦٣) الصفدي. الوافي. ٣٦٩/١٢.

"بإيراد المرتع المريع لرائد التسجيع والترصيع"<sup>(١٦٤)</sup>. ومؤلفهما محمد بن عمر الفهري ت ٧٢١هـ.

وبلغ الأمر ببعضهم أن وضع مؤلفاً يشرح فيه البديع الوارد في بيتين من الشعر. وهذا ما أورده الصفدي إذ قال معقلاً على شعر كتبه أبو جَلَنك الشاعر ت ٦٦٠هـ على بستان قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان:<sup>(١٦٥)</sup>

عُجْنَا ببستانِ حَلَّلْنَا دَوْحَهُ      في جنةٍ قدْ فُتِّحَتْ أبوابُها  
والبيانُ تحسبُها سنانيرَ رأَتْ      قاضي القضاة فتفتشتْ أذناها

"قلت: بلغني أن الشيخ بدر الدين بن محمد بن مالك وضع على هذين البيتين كُرَاسة في البديع".

وُعدَّ ابن نباتة أحد أقطاب البديع في عصره. وبلغ إعجابه بأدب القاضي الفاضل أن ألف كتاب "الفاضل من إنشاء الفاضل". وأُفرد في كتابه مطلع الفوائد باباً كبيراً لأدبه<sup>(١٦٦)</sup>. وكان أيضاً رائداً من رواد مذهب التورية وقدذاك. فقد كان يدافع عنه. ويكثر من استخدامها في أدبه. وفي الوقت نفسه كان يبغض فن الجناس. ويهاجم رواده. يذكر أنه كان يعيب على الصفدي<sup>(١٦٧)</sup> اقتنائه به. وأنه لما اطلع على كتابه "جنان الجناس" قرأه "جنان الخناس"<sup>(١٦٨)</sup>. فجرى بينهما بسبب ذلك. كما يروي ابن حجة. ما يطول شرحه<sup>(١٦٩)</sup>.

وإذا نظرنا إلى "حظيرة الأوس" نجد أن الأديب قد أكثر من استخدام الفنون البديعية فيها مثل السجع والجناس والطباق والتورية.

أما السجع. فهو أكثر فنٍ بديعي بروزاً في هذه الرحلة. ولهذا النوع دور في إبراز الموسيقى الداخلية في النص النثري لأنه يقوم فيه مقام القافية في الشعر. فيوفر العنصر الموسيقي الذي توفره القافية. وقد ميز النقاد بين نوعين من السجع:

- (١٦٤) ابن القاضي. درة الحجال. ٩٧/١.  
 (١٦٥) الصفدي. أعيان العصر. ١٩٢/١. الغيث المسجم. ٤٧/١. ابن العجمي. كنوز الذهب. ٢٩٨/١. العاملي. الكشكول ٤٢٦/٢ ولمزيد من التفصيل حول البديع في العصر المملوكي انظر ابن خلدون. المقدمة. ١٣٢٠/٣. عصر سلاطين المماليك. ص ١٥/٤. النقد الأدبي في العصر المملوكي. ص ٤٢٢. د. أحمد الهيب. الجانب البديعي في شعر ابن الوردي. ص ٨. د. عبد الجليل عبد المهدي. بيت المقدس. ٢٩٤. فن الرثاء. ص ٣٧٤. وأبو جَلَنك هو أحد شعراء الموصل المشهورين. خرج لقتال المغول حين احتلوا الموصل سنة ٦٦٠هـ. فقتلوه. انظر النجوم الزاهرة. حوادث سنة ٦٦٠هـ.  
 (١٦٦) انظر مطلع الفوائد. ص ٤١٤-٤٥٠. الدرر الكامنة. ٣٤٠/٤.  
 (١٦٧) انظر أعيان العصر ٦٧٧/١-٦٧٨. فض الختام. ١٢٤-١٣٢. كشف اللثام. ص ٤. ٥٨. ٨٥. ٨٦.  
 خزانة الأدب. ١٢٢/١-١٢٣-١٢٧. مطالع البدور. ٩٠/١.  
 (١٦٨) أي الشياطين.  
 (١٦٩) انظر خزانة الأدب. ٥٦/١.

النوع الأول: فقراته قصيرة. وهذا هو المحبب إلى نفوسهم لأنه يدل "على قوة التمكن وإحكام الصنعة"<sup>(١٧٠)</sup>. وتلذذ به أسماع المتلقين لأن تقارب أجزاءه يزيد من بروز الموسيقى. وهذا الضرب بدا بصورة قليلة في "حظيرة الأوس". ومنه قوله: "وأصبحنا وقد امتلأت القلوب سروراً. والأعين نوراً. وقوبنا على قصد جنى الجنان. واسقبلنا محاسن بيسان"<sup>(١٧١)</sup>. ومثله قوله متحدثاً عن عجلون "ثم نزلنا بالخيام في مرجتها الخضراء. تحت قلعته الغراء".<sup>(١٧٢)</sup>

النوع الثاني: فقراته متباعدة. وهذا النوع كرهه النقاد العرب القدامى. ونهوا عنه "لئلا يبعد عن السامع وجود القافية. فيقل الالتذاد بسماعها"<sup>(١٧٣)</sup>.

وقد شاع هذا النوع في رحلة ابن نباتة. ومرد ذلك إلى أن حالته النفسية آنذاك دفعته إلى استخدامه. وهذا ما عبر عنه إذ قال مخاطباً قراءه. "ومن اعتادوا على تذوق فنه: فكثرت على هذا اللفظ المسجوع". "وقد علم الله أن هذه النبذة من القول وردت على قريحة مسها فقد الولد بقرح وأي قرح! وقال بفكرها الذي كان حاتك الكلام. لست اليوم من ذلك الطرح. فلييسط الواقف على هذه الرحلة عذري. ويعلم في كونها ليست من عادة نظمي ونثري"<sup>(١٧٤)</sup>. ومن الأمثلة على ذلك. وهي كثيرة. قوله: "ومن المباني المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره. وأبقاه سيفاً يقف كل ذي قدر عند حدّه فلا يجاوز مقداره"<sup>(١٧٥)</sup>. ومن ذلك قوله: "وسلكنا جانب الغور الممطور فأعجبنا رياً ورُواء. وكنا نظن الماء فيه غوراً فوجدنا الغور ماء. وخضنا في حديثه وخاضت الخيل. وتركنا عقباته كالمعلقة وملنا إلى السهل كل الميل. وتلقينا كل ذي قصد يُبشر بالصباح ولم نقل أهلك والليل."<sup>(١٧٦)</sup>

ويأتي الجناس في المرتبة الثانية بعد السجع في هذه الرحلة. على الرغم من أن الكاتب كان يبغضه ويهاجم الداعين له. وقد أكثر من استخدام الجناس الناقص الذي جاء في قسم كبير منه متكلفاً ومقحماً على النص. فيما جاء قسمه الآخر مُنسجماً مع النص غير متكلف مما زاد في جمال لغته وبروز الموسيقى الداخلية فيه. وبالتالي التذاد آذان سامعيه عند تلقيهم له. ومن أمثلة هذا النوع قوله: "الحمد لله الحافظ سرّ ملكه بأمينه. وحامي حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنياه ودينه"<sup>(١٧٧)</sup>. فالجناس جاء في "حامي". و "حماه". و "دنياه". و "دينه".

ومثله قوله متحدثاً عن وصولهم القدس الشريف: "وخف بنا جناح السوق والشوق حتى دنت الخيام من الخيام"<sup>(١٧٨)</sup>. برز الجناس في لفظتي "السوق" و "الشوق". ويتجلى ذلك في

- |       |   |
|-------|---|
| (١٧٠) | حسن التوسل. ص ٢١٣.  |
| (١٧١) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٨.   |
| (١٧٢) | المصدر نفسه. ص ٣٦٢.   |
| (١٧٣) | حسن التوسل. ص ٢١٣. معالم الكتابة. ص ٩٢-٩٣. وانظر الباقلائي. إجاز القرآن. ص ١٠٩. |
| (١٧٤) | ثمرات الأوراق. ص ٣٧٠.   |
| (١٧٥) | المصدر نفسه. ص ٣٦٥.   |
| (١٧٦) | المصدر نفسه. ص ٣٦٣.   |
| (١٧٧) | المصدر نفسه. ص ٣٥٨ - ٣٥٩.   |
| (١٧٨) | المصدر نفسه. ص ٣٦٤.   |

لفظتي "الصالح" و"الطالح" في قوله متحدتاً عن أفعال الوزير في عجلون: ".. فنظر في المصالح. وميَّز بالعدل بين الصَّالح والطَّالِح"<sup>(١٧٩)</sup>. يلاحظ هنا أن هاتين اللفظتين جاءتا متجانستين ومتضادتين. فاكتمل بذلك الحسن والجمال.

أما الجنس المتكلف الثقيل على آذان المتلقين. فبدا في قوله واصفاً الرُّواق الذي بناه الوزير على سطح الزاوية الصحابية بباب الحرم: "واطَّرد ماءً رونقها فكأنَّ العين منها في ماء وفيء. ويا له رواقاً شاق وصفه وراق. ورفع محله فقال لسان المتصوِّف: حبِّذا رفاعي الرُّواق"<sup>(١٨٠)</sup>. هذا المثال صورة واضحة ينطق عن الجهد الذي بذله الكاتب للإتيان بالألفاظ التي تجانس لفظة "روق". ولو أنه تخلَّى عن ذلك وأطلق سجيته لكان خيراً لعمله الأدبي.

ومنه ما جاء في لفظتي "الخليبية" و "الجليلية" في قوله: "وقد قَدِمْنَا نقصد الخليل صلوات الله عليه بالنبيَّة الجليلية. وطربنا لتلك المنازل. وكيف لا نطربُ لها وهي الخليلية"<sup>(١٨١)</sup>.

أما الطَّباق. فيأتي في المرتبة الثالثة بعد السَّحج والجناس. وقد جاء في معظمه عفو الخاطر غير متكلف. وله "فائدة كبيرة في جذب انتباه السامعين لما ينتج عنه من أخيلة وصور شعريَّة. فالمتلقي لا يلبث أن ينتقل من صورة أو معنى معين إلى صورة ومعنى مضادَّ له. ولهذا كان له علاقة وثيقة ببلاغة الكلام"<sup>(١٨٢)</sup>. ويساعد كذلك على إيجاز الكلام بدل الإطناب فيه.

وأمثله كثيرة في هذه الرحلة. منها قول ابن نباتة مصوراً أفعال الوزير في القدس. "وشرَّعتْ صدقاتُ السرِّ والجهر"<sup>(١٨٣)</sup>. ويمتزج الطَّباق بجمال الصورة الفنيَّة في قوله: "وبنَّنا ليلَةً طيبة نُحبيها ونميتُ النوم"<sup>(١٨٤)</sup>.

ويتجلى الطَّباق الجميل في لفظتي "عمارة" و "اندثار" إذ قال معبراً عما فعله الوزير بمسجد الركني في الرملة: "فأمر مولانا الصَّاحب بعمارة ما منه اندثر"<sup>(١٨٥)</sup>.

وتكلف ابن نباتة أحياناً في توظيف الطَّباق كما يبدو في قوله: "وننَّرنَّا على مواطئ القدم دموعاً عزَّت ولا نقول هانت"<sup>(١٨٦)</sup>. إنَّ لفظة "هانت" تبدو مقحمة في النص. ما جاء بها الكاتب إلا لتطابق لفظة "عزَّت".

ومثله قوله مطابقاً بين لفظتي "الصباح" و "السرى": "وَحَمَدْنَا عند صباح ذلك الوجه السرى"<sup>(١٨٧)</sup>.

- 
- |       |  |
|-------|--|
| (١٧٩) | المصدر نفسه. ص ٣٦٣.  |
| (١٨٠) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٣.  |
| (١٨١) | المصدر نفسه. ص ٣٦٧. ولمزيد من الأمثلة انظر ٣٦٢-٣٦٣.                              |
| (١٨٢) | أحمد موسى. الصيغ البيديعي. ص ٤٧١.  |
| (١٨٣) | ثمرات الأوراق. ص ٣٦٥.  |
| (١٨٤) | المصدر نفسه. ص ٣٦٨.  |
| (١٨٥) | المصدر نفسه. ص ٣٦٨. ولمزيد من الأمثلة انظر. ص ٣٦٢. ٣٦٣. ٣٦٤. ٣٦٥. ٣٦٦. ٣٦٧. ٣٧٠. |
| (١٨٦) | المصدر نفسه. ص ٣٦٤.  |
| (١٨٧) | المصدر نفسه. ص ٣٦٧.  |

أما التورية التي كان ابن نباتة أحد روادها. فإتينا لا نجد لها الفنّ البديعي الصارخ في هذه الرحلة. وإنما نجدها أقل الأنواع البديعية استخداماً. وتعليل ذلك أنّ الكاتب كان يعاني الحزن والألم على فقد ولده عبد الرحيم. والتورية بحاجة إلى ذهن متوقّد مبتكر يظهر قدرة على التلاعب بها. لا إلى ذهن مسّه القرح وأودى به فقد الولد.

ومن الأمثلة عليها قوله متحدثاً عن أحد رفاق السفر واسمه الخلد: "شكا قوم عشرة هذا الرجل فكتب على ورقهم: اصبروا على ما يفعلون" و"ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون"<sup>(١٨٨)</sup>. جاءت التورية في الآية القرآنية في لفظة الخلد. فالمعنى القريب لها الخلود في النار لوجود شيء من لوازمه "عذاب". أما البعيد. وهو المقصود. فهو عذاب ذلك الرجل الذي يدعى الخلد. وعذابه هنا ناتج عن سوء خلقه وعشرته.

وتجلّت التورية في حديث ابن نباتة عن سخاء الوزير: "وقول السّؤال ببحر لا يُسمع عنده نهر"<sup>(١٨٩)</sup>. وردت التورية في لفظة "نهر". فالمعنى القريب لها "النهر" المعروف لوجود شيء من لوازمه وهو "البحر". أما المعنى البعيد. وهو المراد. فتعني الإعراض والصدود.

والمعنى الإجمالي هو أنّ طلبات المحتاجين كان ممدوحه يلبّيها دون إبطاء أو اعتراض. ومن التورية ما جاء في قوله يمدح الوزير: "وزان بأقلامه أقاليم مصر. فهذه سهام. وهذه كنانة"<sup>(١٩٠)</sup>. برزت التورية في لفظة "كنانة". فالمعنى القريب لها جعبة السهام لوجود شيء من لوازمه وهو "سهام". ولكن المعنى البعيد المقصود. فهو أقاليم مصر. التي يُطلق عليها أرض الكنانة.

### الصورة الفنية

اهتمّ ابن نباتة اهتماماً كبيراً بالصورة الفنية. مما جعل رحلته عملاً أدبياً مميّزاً. يفوق غيره من الأعمال المتعلقة بأدب الرحلات في هذا المجال. وقد اعتمد في تشكيل صورته على التشخيص. مستخدماً ضروب علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية. وهذه الأنواع تهدف إلى الإيضاح "إذ ترى الجماد ناطقاً. والأعجم فصيحاً. والأجسام الخرس مبيّنة. والمعاني الخفية بادية جليّة"<sup>(١٩١)</sup>. واستمد الكاتب عناصر صورته الفنية من الطبيعة والواقع ومظاهر الحضارة والمجتمع. ومن القرآن والتراث<sup>(١٩٢)</sup>.

اتكأ الأديب على الطبيعة المتحركة والصامتة في إنتاج صورته. وكانت الأخيرة أي الصامتة أكثر المصادر التي استقى منها صورته. والأمثلة عليها كثيرة. فمن ذلك تصويره ممدوحه بالبحر

(١٨٨) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٤.

(١٨٩) المصدر نفسه. ص ٣٦٥.

(١٩٠) المصدر نفسه. ٣٥٩-٣٦٠. ولمزيد من الأمثلة انظر ص ٣٦١. ٣٦٢.

(١٩١) الجرجاني. أسرار البلاغة. ص ٣٣. وانظر العمدة. ٢٨٧/١.

(١٩٢) جاء الحديث عن ذلك تحت عنوان "الأثر الإسلامي". وعنوان "الأثر التاريخي".

في جوده وكرمه<sup>(١٩٣)</sup>. والوافدين إليه بالرملة لكثرة أعدادهم<sup>(١٩٤)</sup>. ويتحدث الأديب عن الوزير وعنايته بالدولة المملوكية. فيستوحي عنصر الأزهار فيقول: "ويحوط أطرافها إحاطة الزهر بكمامه"<sup>(١٩٥)</sup>.

ويشخص ابن نباتة الأفق. فيجعله شخصاً يستيقظ من مرقدته وهو الغمام ليعبر عن انحسار الظلام وطلوع الفجر. وهي مدة إقامتهم في الحرم القدسي. يقول: "ومكثنا في البيوت إلى أن صحا الأفق من مدامة غمامه. وحسرت عن وجهه للأبصار فضل لثامه"<sup>(١٩٦)</sup>. وفي موضع آخر من رحلته يصور الركب العائدين إلى دمشق تحت جناح الظلام بالنجوم السائرات ليلاً. كما يتجلى في قوله: "سائرين سرى النجوم في الليل"<sup>(١٩٧)</sup>.

ويعبر عن حزنه على ولده عبد الرحيم. فيصوره. أي حزنه. روضة تسقيها دموعه الغزيرة غزارة ماء الغمام. فيقول: "ساقياً روض الحزن بغمائم الجفون"<sup>(١٩٨)</sup>.

أما الطبيعة المتحركة. فاستوحي صورته منها إذ صور المرتحلين وسرعة مغادرتهم الغور بالليث حين يسرع بالإنقضاض على فريسته. قال: "ثم نهضنا عن الغور نهوض ليثه الملبد"<sup>(١٩٩)</sup>. وصور نساء دمشق لجمالهن بالظباء إذ أشار إلى عطايا الوزير لهن فقال: "ولا ظبية من ظبيات دمشق إلا والمكارم ثوالها وتوليها"<sup>(٢٠٠)</sup>.

واستعان ابن نباتة بمظاهر حضارية لينتج صورته. فهو إذ تحدث عن حسن تدبير ممدوحه صور الممالك فتاة جميلة تمدّ جيدها له. فيزينها بأنواع الحلوى والعقود. يقول: "وإذا امتدت إليه أجياد الممالك حلاها من عقد تدبيره بثمانية"<sup>(٢٠١)</sup>. ويصور الكاتب حسن صنعة قلعة عجلون ورفعته. فيجعل النجوم عقوداً والقلعة واسطتها. وهذا ما يوضحه قوله: "... مضيئة بين الأنجم كأن درتها اليتيمة"<sup>(٢٠٢)</sup>.

ويرمز الرمز بصورة جلية في "حظيرة الأنس". ولكنه لم يبلغ مرتبة الاستعارة والتشبيه. ومن أمثلته قوله واصفاً أساه على ولده: "وذلك أنني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي"<sup>(٢٠٣)</sup>. فثياب الحزن صورة رمزية لمعاناته الشديدة.

(١٩٣)	انظر ثمرات الأوراق. ص ٣٦٥.
(١٩٤)	انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٨.
(١٩٥)	المصدر نفسه. ص ٢٥٩.
(١٩٦)	المصدر نفسه. ص ٣٦٤.
(١٩٧)	المصدر نفسه. ص ٣٦٩.
(١٩٨)	المصدر نفسه. ص ٣٦٠.
(١٩٩)	ثمرات الأوراق. ص ٣٦٩.
(٢٠٠)	المصدر نفسه. ص ٣٦٣.
(٢٠١)	المصدر نفسه. ص ٣٥٩.
(٢٠٢)	المصدر نفسه. ص ٣٦٣.
(٢٠٣)	المصدر نفسه. ص ٣٦٠.

وامتزج الرمز بالنتشخيص حين شرع في وصف الرحلة ووقتها. كما يبدو في قوله متحدثاً عن فصل الربيع. وما فيه من خضرة وزهور. وعن سعادتهم وقت وصول الكُسوة: "والأرض قد شَرَعَتْ في لباس حليها وحُلَّها"<sup>(٢٠٤)</sup> "فأتينا الكُسوة فلبسنا منها للمسرة ثياباً سابغة الذبول"<sup>(٢٠٥)</sup>.

ويعبر بصورة رمزية عن لحظة وصولهم إلى الحرم القدسي. وما واكبه من انهمار للأمطار الغزيرة. فيقول: "وألقينا ببابه عصا السفر. وألقت هناك رحالها ركائبُ المطر"<sup>(٢٠٦)</sup>. ويتضح الرمز إذ وصف قلعة عجلون وتحدث عن علوها. وإحاطتها بالخييل. فقال: "جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين"<sup>(٢٠٧)</sup>.

اتَّسَمَت الصُّور الفنيَّة في "حظيرة الأُنس" بعدة سمات منها الواقعية. وهذا أمر طبيعي في رحلة استنقت معلوماتها. وشكَّلت صورها من واقع الأماكن والمدن التي زاروها. والأحداث التي عايشوها. والرحلة من بدايتها إلى نهايتها تنطق بهذه السمة.

وتميَّزَت صورهُ باستخدامه عنصر اللون في تشكيلها. ولذا شاعت في رحلته الألفاظ والعبارات الدالة عليه مثل "الزهر"<sup>(٢٠٨)</sup>. و "الأقمار"<sup>(٢٠٩)</sup>. و "التبر"<sup>(٢١٠)</sup>. و "روض"<sup>(٢١١)</sup>. و "الجين وعقبان"<sup>(٢١٢)</sup>. و "التوشيع والتفويف"<sup>(٢١٣)</sup>. و "صباح"<sup>(٢١٤)</sup>. و "خمرة الصبح"<sup>(٢١٥)</sup>. و "درّة الصبح"<sup>(٢١٦)</sup>. و "ليلة"<sup>(٢١٧)</sup>. و "وشي البديع"<sup>(٢١٨)</sup>. و "سرى النجوم في الليل"<sup>(٢١٩)</sup>. والخضراء<sup>(٢٢٠)</sup>. وغير ذلك من الألفاظ والعبارات التي وظَّفتها للتعبير عن جمال الطبيعة والأرض وأوقات التنقل. ومدة الإقامة.

واتَّسَمَت صورهُ بأنها جاءت عامرة بالحركة. فكثرت فيها الألفاظ والعبارات المعبرة عن ذلك. وهذه السمة طبيعية أيضاً في رحلة تعتمد في بنائها على التَّنقل من مكان إلى آخر. ومن

(٢٠٤)	المصدر نفسه. ٣٦١.
(٢٠٥)	المصدر نفسه. ص ٣٦١.
(٢٠٦)	المصدر نفسه. ص ٣٦٤.
(٢٠٧)	المصدر نفسه. ص ٣٦٢.
(٢٠٨)	ثمرات الأوراق. ص ٣٥٩.. ٣٦٩.
(٢٠٩)	المصدر نفسه. ص ٣٦٠.
(٢١٠)	المصدر نفسه. ص ٣٦٠. ٣٦١.
(٢١١)	المصدر نفسه. ص ٣٦٠.
(٢١٢)	المصدر نفسه. ص ٣٦٥.
(٢١٣)	المصدر نفسه. ص ٣٦٦.
(٢١٤)	المصدر نفسه. ص ٣٦٦. ٣٦٧.
(٢١٥)	المصدر نفسه. ص ٣٦٩.
(٢١٦)	المصدر نفسه. ص ٣٦٣.
(٢١٧)	المصدر نفسه. ص ٣٦٣. ٣٦٨.
(٢١٨)	المصدر نفسه. ص ٣٦٩.
(٢١٩)	المصدر نفسه. ص ٣٦٩.
(٢٢٠)	المصدر نفسه. ص ٣٦٢.

الأمثلة على ذلك وهي كثيرة جداً: "والخيل تجمزُ جمزاً" (٢٢١). "وقمنا لبقية المشاهد قاصدين" (٢٢٢). "واقتحمنا إلى الغور عقبه.. " (٢٢٣). فالألفاظ "تجمز" و"اقتحمنا" و"قمنا" تدل على الحركة.

وامتازت رحلته بغزارة صورها الفنية. ويتضح ذلك في غير موضع من رحلته. ومنه قوله واصفاً دمشق ومصر وأهرامها. وشبابيك الوزارة وخزائنها. وهي تستقبل الوزير وتتمنى رجوعه إليها: "وكادت دمشق تمد أيدي إعطائها لمجاذبة ركابه. ومصر تتصرع بأصابع نيلها طمعاً في اقترابه. وترفع ثدي هرمة داعياً إلى الله بعوده إليها وإيابه. وهم شباك الوزارة أن يتلقى صاحب فتحه. وصدر الخزان أن يعانق ما اعتاده من رأي عطفه ومنحه" (٢٢٤).

## قائمة المصادر والمراجع

### المصادر المطبوعة

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير الموصلية. أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن عبدالكريم. ت ٦٣٧هـ. (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.
- ابن تغري بردي. جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي، ت ٨٧٤هـ. (١٩٩٨م). الدليل الشافي على المنهل الصافي. تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط ٢. دار الكتب المصرية. القاهرة.
- ابن تغري بردي. جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي، ت ٨٧٤هـ. (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م). النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة. ط ١. قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت.
- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي. ت ٤٠٣هـ. (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م). إعجاز القرآن. قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ محمد شريف سكر. ط ٣. دار إحياء العلوم. بيروت.
- الإمام الحافظ بن عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. ت ٢٥٦هـ. (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م). صحيح البخاري. مراجعة وضبط فهرسة. الشيخ محمد علي قطب. الشيخ هشام البخاري. ط ٢. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.
- الجاحظ. عمرو بن بحر. ت ٢٥٥هـ. البيان والتبيين. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. الطبعة الثانية. مكتبة الخانجي بمصر. ومكتبة المثنى ببغداد. ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

(٢٢١) المصدر نفسه. ص ٣٦١.

(٢٢٢) المصدر نفسه. ص ٣٦٤.

(٢٢٣) المصدر نفسه. ص ٣٦٣.

(٢٢٤) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٧.

- ابن جابر الأندلسي. محمد بن أحمد. ت ٧٨٠ هـ. (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م). الحلة السيرافي مدح خير الوري. تحقيق: علي أبو زيد. عالم الكتب. بيروت.
- الجرجاني. عبد القاهر أبو بكر بن عبدالرحمن بن محمد. ت ٤٧١ هـ. دلائل الإعجاز في علم المعاني. صحح أصله الأستاذ الشيخ محمد عبده. ووقف على تصحيحه وطبعه وعلق حواشيه: الشيخ محمد رشيد رضا. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
- الجرجاني. عبد القاهر أبو بكر بن عبدالرحمن بن محمد. ت ٤٧١ هـ. أسرار البلاغة في علم البيان. صححه وعلق حواشيه. السيد محمد رشيد رضا. دار المطبوعات العربية.
- الجرجاني. علي بن عبد العزيز. ت ٣٩٢ هـ. (١٩٤٥ م). الوساطة بين المتنبى وخصومه. ط ١. تحقيق وشرح. محمد أبو الفضل إبراهيم. وعلي محمد الجاوي. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة.
- ابن حجة الحموي. تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد. ت ٨٣٨ هـ. ثمرات الأوراق. تحقيق وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الجيل. بيروت. لبنان.
- ابن حجة الحموي. تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد. ت ٨٣٨ هـ. خزانة الأدب وغاية الأرب. ط ٢. شرح: عصام شعيتو. دار ومكتبة الهلال. بيروت. لبنان. ١٩٩١ م.
- ابن حجة الحموي. تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد. ت ٨٣٨ هـ. (١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ م). كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام. المطبعة الأنسية. بيروت.
- ابن حجر العسقلاني. (١٩٦٦ م). الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة. حققه وقدم له ووضع فهرسه. محمد سيد جاد الحق. دار الكتب الحديثة. القاهرة.
- الحلبي. صفي الدين عبد العزيز بن سرايا. ت ٧٥٠ هـ. (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م). نتائج الألفية في شرح الكافية البيعية. ط ١. مؤسسة الرسالة. بيروت. دار البشير. عمان.
- ابن خلدون. عبد الله بن محمد. ت ٨٠٨ هـ. مقدمة ابن خلدون. مهّد لها ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طباعتها وحققها وضبط كلماتها وشرحها وعلق عليها. وعمل فهرسها؛ د. علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر. الفجالة. القاهرة.
- ابن رشيق. أبو علي الحسن القيرواني الأزدي. ت ٤٥٦ هـ. (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ٥. دار الجيل. بيروت. لبنان.
- السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ. (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م). الذيل النام على دول الإسلام للذهبي. حققه وعلق عليه: حسن إسماعيل مروة. قرأه وقدم له: محمود الأرنؤوط. ط ١. مكتبة العروبة. الكويت. دار ابن العماد. بيروت.

- السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ. (١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م). وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام. تحقيق: د. بشار عواد معروف. عصام فارس الحرساني. د. أحمد الخطيمي. ط ١. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.
- السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. ت ٩١١ هـ. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق: أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية. بيروت. لبنان.
- السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. ت ٩١١ هـ. (١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م). حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. مصطفى فهمي الكتبي. القاهرة.
- شهاب الدين محمود الحلبي. ت ٧٢٥ هـ. (١٩٨٠ م). حسن التوسل إلى صناعة التوسل. تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف. دار الرشيد للنشر. بغداد.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤ هـ. (١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م). أعيان العصر وأعوان النصر. حققه: د. علي أبو زيد. د. نبيل أبو عمشة. د. محمد موعد. د. محمود سالم محمد. قدم له: مازن عبد القادر المبارك. ط ١. دار الفكر المعاصر. بيروت. دار الفكر. دمشق.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤ هـ. جنان الجناس في علم البديع. ط ١. دار ا لمدينة. بيروت.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤ هـ. (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م). الغيث المسجم. شرح لامية العجم. ط ١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤ هـ. (١٩٧٩ م). فض الختام عن التورية والاستخدام. دراسة وتحقيق: الحمدي عبد العزيز الحناوي. دار الطباعة المحمدية. القاهرة.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤ هـ. الوافي بالوفيات. الجزء الأول. والثالث. والثاني عشر. محققون مختلفون.
- ابن طباطبا العلوي. محمد بن أحمد. (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م). عيار الشعر. دار صادر. بيروت.
- العسكري. أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل. ت ٣٩٥ هـ. (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م). كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. حققه وضبط نصه. د. مفيد قميحة. ط ١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- العاملي. بهاء الدين. ت ٩٥٣ هـ - ١٠٣١ م. الكشكول. الطاهر أحمد الزاوي. دار إحياء الكتب العربية.
- عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي. ٥٥٠ هـ - ٦٢٥ هـ. (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م). عني بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه. محمد حسين شمس الدين. ط ١. دار الكتب العلمية. بيروت.

- ابن العجمي. موفق الدين أحمد. ت ٨٨٤ هـ. (١٩٩٦م). كنوز الذهب في تاريخ حلب. تحقيق: د. شوقي شعث. فالح البكور. دار القلم العربي. حلب.
- الغزولي. علاء الدين علي بن عبدالله البهائي. ت ٨١٥ هـ. (١٣٠٠ هـ). مطالع البذور ومنازل السرور. ط١. مطبعة إدارة الوطن. القاهرة.
- ابن القاضي. أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي. ت ١٠٢٥م. (١٣١٩ هـ. ١٩٧١م). ذيل وفيات الأعيان المسمي درة الحجال في أسماء الرجال. تحقيق. محمد الأحمد أبو النور. ط١. المكتبة العتيقة. تونس. دار التراث. القاهرة.
- القرطاجني. أبو الحسن حازم. ت ٦٨٤ هـ. (١٩٨٦م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق. محمد الحبيب بن الخوجة. ط٣. دار الغرب الإسلامي. بيروت.
- المقرزي. تقي الدين أحمد بن علي المقرزي. ت ٨٤٥ هـ. (١٤١٨ هـ. ١٩٩٧م). السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- ابن منظور. محمد بن مكرم الأنصاري. ت ٧١١ هـ. (١٤١٣ هـ. ١٩٩٣م). لسان العرب. ط٣. نسقه وعلق عليه ووضع فهرسه. مكتب تحقيق التراث. دار إحياء التراث العربي. مؤسسة التاريخ العربي. بيروت.
- ابن الوردي. زين الدين عمر بن مظفر. (١٩٩٦م). تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي. دار الكتب العلمية. بيروت.
- ابن نباتة المصري. جمال الدين. ت ٧٦٨ هـ. (١٣٩٢ هـ. ١٩٧٢م). مطلع الفوائد ومجمع الفرائد. تحقيق: د. عمر موسى باشا. مطبوعات مجمع اللغة العربية. دمشق.
- ابن وكيع التنيسي. أبو محمد الحسن بن علي الضبي. ت ٣٩٣ هـ. (١٩٩٤م). المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره. حققه وقدم له: عمر خليفة بن إدريس. ط١. جامعة قارونس. بنغازي.
- ياقوت الحموي. شهاب الدين أبو عبدالله الرومي البغدادي. ت ٦٢٦ هـ. معجم البلدان. دار صادر. بيروت.

#### المراجع الحديثة

- نصار. حسين. (١٩٩١م). أدبيات أدب الرحلة. مكتبة لبنان. بيروت.
- عباس. إحسان. (١٩٩٣م). تاريخ النقد الأدبي عند العرب. نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري. ط٣. دار الشروق. عمان.
- طبانة. بدوي. (١٤٠١ هـ. ١٩٨١م). أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية. ط٣. دار الثقافة. بيروت.

- طبانة بدوي. السرقات الأدبية. (١٩٦٩م). دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها. ط٢. مكتبة الأنجلو المصرية.
- غريب. جورج. (١٩٧٢م). أدب الرحلة تاريخه وأعلامه. دار الثقافة. بيروت.
- حسني. حسني محمود. (١٩٧٦م). أدب الرحلة عند العرب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.
- عبد الرحيم. رائد. (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م). فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي. ط١. دار الرازي. عمان.
- عبد المهدي. عبد الجليل. (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م). بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية. دار البشير. عمان.
- عثمان. عبد الفتاح. نظرية الشعر في النقد العربي القديم. مكتبة الشباب. القاهرة.
- قنقيلة. عبده عبد العزيز. (١٩٧٢م). النقد الأدبي في العصر المملوكي. ط١. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.
- أبو زيد. علي. (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م). البيديعيات في الأدب العربي. نشأتها. تطورها. أثرها. ط١. عالم الكتب. بيروت. دمشق.
- مال الله. علي محسن. (١٩٧٨م). أدب الرحلات عند العرب في المشرق. نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري. وزارة الثقافة والفنون. بغداد.
- باشا. عمر موسى. (١٩٦٣م). أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري. دار المعارف. القاهرة.
- البرازي. مجد باكير. (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م). النقد العربي القديم. ط١. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- عبد المطلب. محمد. (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م). اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين. ط١. دار الأندلس. بيروت. لبنان.
- الفقي. محمد كامل. (١٢٠٤هـ - ١٩٨٤م). الأدب في العصر المملوكي. ط٣. دار الموفق. مصر.
- سليم. محمود رزق. عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي. مكتبة الآداب. الجماميز. مصر.
- اليازجي. ناصيف. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب. دار القلم. بيروت. لبنان.

- بكار. يوسف. (١٣٧٩هـ-١٩٧٩م). بناء القصيدة العربية. دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة.

#### الرسائل الجامعية

- عبد الرحيم. رائد. (١٩٩٧م). "صورة المغول في الشعر العربي- العصر المملوكي". رسالة ماجستير. الجامعة الأردنية. عمان.
- محمد. محمود سالم. (١٩٨٧م). "المدائح النبوية في العصر المملوكي". رسالة دكتوراه. جامعة دمشق.
- الصايغ. هنرييت زاهي سابا. (١٩٨٠م). "اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام". رسالة دكتوراه. جامعة القاهرة.

#### الدوريات العربية

- الهيب. أحمد فوزي. (١٤١٧ - ١٩٩٧م). "الجانب البديعي في شعر ابن الوردي". مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ج ١. م ٧٢.